www.dorat-ghawas.com

محتويات العدد

■ الموردة

نصرنا .. انتصار أمة الجهاد ..... د . محمد البكاء ٣

■ بحوث ودراسات

* المدارس النحوية بين ايدي الدارسين ..... أ . د . نعمة رحيم العزاوي ٤ ـ ٢١
* حتى في كتب النحو ..... أ . د . علي محسن مال الله ٢٢ ـ ٣٢
* سورة الدهر ـ قراءة تاملية ..... أ . د . بشرى البستاني ٣٣ ـ ٤٣
* الاصمعيات ـ دراسة في اسس الاختيار ..... أ . د . محمود الجادر ٤٤ ـ ٥٤
* موازنة بين ذئبيتي الفرزدق والبحتري ..... أ . د . يونس السامرائي ٥٥ ـ ٦٢
* المتنبي في معيار الحاتمي النقدي ..... رعد عبد اللطيف صالح ٦٣ ـ ٦٨
* امتداد التراث النقدي العربي في المعاصرة ..... أ . د . عبد الكريم راضي جعفر ٦٩ ـ ٨١

■ نصوص محققة

* اوراق من عيون التواريخ لابن شاكر ٦٨٦ هـ ـ ٧٦٤ هـ
تحقيق : عبد العزيز ابراهيم ..... ٨٢ ـ ٩٧
* شعر ملوك الاندلس وامرائها في القرن الخامس الهجري
صنعة د . انقاذ عطا الله ..... ٩٨ ـ ١٢٥

* اصدارات المجمع العراقي ..... ١٢٦ ـ ١٢٧
* الجديد في المكتبة (الطريق الى القدس) عرض : محمد رجب السامرائي ١٢٧ ـ ١٢٨
* مطبوعات وردت الى المجلة ١٢٨

العدد الثالث

www.dorat-ghawas.com

المدارس النحوية
بين ايدي الدارسين

أ . د نعمة رحيم العزاوي
كلية التربية (ابن رشد)

المقدمة

موضوع (المدارس النحوية) من الموضوعات المهمة في تاريخ النحو العربي ، وقد تناوله القدامى ، ولكن ما أثر عنهم فيه لم يكن كافيا او شافياً ، ثم تناوله المستشرقون في اوائل هذا العصر ، فتلقفوا ما عثروا عليه من ملاحظات العرب القدماء ، وراحوا يجتهدون في تفسيرها ، ومضوا ينفون ويثبتون من غير امانة علمية حينا ، ومن غير تمحيص او وعي حيناً اخر ، وجاء الدارسون المحدثون من العرب فوقفوا على ملاحظات القدماء وآراء المستشرقين بشأن هذا الموضوع ، فتباينت اراؤهم فيه ، واحتدم بينهم جدل وخلاف ، فتوسع فريق منهم وزعم ان في النحو العربي خمس مدارس ، اي بعدد بيئات الدرس العلمي ، وأماكن ازدهاره ، ففي البصرة مدرسة ، وفي الكوفة ثانية وفي بغداد ثالثة وفي مصر والشام رابعة وفي الاندلس خامسة . واعتدل فريق اخر فاقام رأيه في مسيرة الدرس النحوي على اساس علمي ، قوامه فهم عميق لهذه المسيرة وادراك ناضج لمقولات القدماء وملاحظاتهم عنها، فلم يصح لديه من هذه المدارس الا اثنتان هما البصرية والكوفية ، ولم يعتد بما اظهر الفريق الاول من تكلف في الرأي ، وابعاد في التفسير والتاويل ، لا يخفيان على الدارس اليقظ ، والباحث المتجرد . وتطرف نفر ثالث فزعم ان النحو العربي برمته هو علم واحد ، لم تتباين فيه مناهج الدارسين ، ولم تتعدد في ارساء قواعده سبل البحث ، فجميع النحاة عند هذا النفر سلكوا مهيعا واحداً ، وتعاملوا مع كلام العرب بعقلية واحدة ، واذا كان ثمة خلاف بين النحاة فهو خلاف يسير ، يمس الفروع لا الاصول ، ويتناول الجزئيات لا الكليات .

ومما يلفت النظر حقاً ان هذه الاراء المتضاربة المتعارضة ، ما برحت تعرض على طلبة الجامعات كما هي ، من غير نقد لها او تمحيص لما هو حق وغير حق منها ، فيؤدي ذلك بهم الى فهم مضطرب لهذا الموضوع ، ويحول بينهم وبين استصفاء الرأي العلمي السديد .

وتحقيقاً لهذا الهدف كتبت هذا البحث ، وحاولت ان اصل بقارئه الى نتائج علمية موضوعية ، تستحق ان يفوز بها الباحث بعد ان يخوض عباب الاراء في هذا الموضوع ، الذي شاء بعض المستشرقين وبعض العرب المحدثين ان يغم أمره ، ويغيب وجه الحق فيه .

تمهـــيد
الجهود الاولى في النحو

يكاد يجمع المؤرخون على ان بداية النحو العربي كانت على يدي ابي الاسود الدؤلي (ت ٦٩) وان هذه البداية كانت ترمي الى منع اللحن في قراءة القرآن ، وانها لم تتعد اول الامر نقط القرآن نقط شكل . جاء في الفهرست : ان الدؤلي قال لكاتبه : « اذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقطه نقطة فوقه الى اعلاه ، وان ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف »[1] .

وهذا يعني « ان عبارة (فتح) الفم و (كسره) و (ضمه) يسرت خلق مصطلحات ثلاثة ، وتلك المصطلحات الفتحة والكسرة والضمة ، ولعل الوصول الى هذه المصطلحات الثلاثة ان تكون بالنسبة لأبي الاسود كشفاً هائلا يقف في بناء صرح النحو العربي موقف اكتشاف النار في تقدم الحياة الانسانية . ولعل الدليل القوي على ذلك ان النحو العربي بني كله على هذه الحركات، لكونها اصبحت علامات الاعراب ، وآثار العوامل ، ومن الواضح ان النحو العربي بني على فكرة العامل ، وما كان لذلك ان يتم لولا الكشف عن الحركات الثلاث »[2] .

وقد « حمل هذا الصنيع عن ابي الاسود تلاميذه من قراء

www.dorat-ghawas.com

الذكر الحكيم ، في مقدمتهم نصر بن عاصم وعبد الرحمن هرمز ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الاقرن ... وأضافوا الى ذلك عملًا جليلًا هو اتخاذ نقط جديدة للحروف المعجمة في المصاحف تمييزاً لها من الحروف المهملة . فقد ذكر الرواة ان الحجاج (ت ٩٥ هـ) امر نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ) او يحيى بن يعمر (١٢٩ هـ) باعجام حروف المصحف لتمييز الحروف بعضها من بعض »[٣]

فعن تلاميذ ابي الاسود المنوه بهم كان يؤخذ النقطان جميعاً : نقطا الاعراب والاعجام « وكان ذلك عملًا خطيراً حقا ، فقد احاطوا لفظ القرآن بسياج يمنع اللحن فيه »[٤]

وعلى الرغم من اهمية صنيع ابي الاسود وتلاميذه اذنا لا نستطيع ان ننسب اليهم نشاطاً نظرياً معيناً على وجه التاكيد »[٥] . وقد اشار تمام حسان الى ان اداة النحو لم تكتمل « في ايدي الدؤلي واصحابه ، ولذا لم نسمع انهم طعنوا على اصحاب السليقة بواسطة تحكيم القواعد . ولم يتتبعوا شاعراً ولا ناثراً بالتغليط والتصويب ، وانما كان الطعن على العرب من نصيب احد خلفائهم من الموالي الفصحاء وهو عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي رئيس الجيل الذي تلا جيلهم »[٦]

ويبدو ان عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) كما قال ابن سلام هو « اول من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل » [٧] وذلك لان غاية الحضرميّ « كانت الوصول الى انشاء الة نحوية لها من الاطراد والبعد عن التوسع والشذوذ ما يعصم الالسنة من الخطأ واللحن ، ويلغ من شغفه بالاطراد ، وحرصه عليه انه لم يكن يطيق ان يسمع كلاماً لا تصدق عليه قواعده التي توصل اليها ، لان كل مخالفة لهذه القواعد كانت في نظره تحديا لهذا الهيكل البنيوي البديع الذي اهتدى اليه »[٨] وآية ذلك ان مما وضعه الحضرمي من قواعد ان الخبر لا يكون جملة طلبية ، ولذا اختار قراءة النصب في قوله تعالى : (والسارق والسارقة اقطعوا ايديهما)[٩] على قراءة الرفع التي لا تتفق مع قاعدته المذكورة ، وذلك على رغم شيوع قراءة الرفع عند جمهور القراء ، وعلى رغم ان القراءة سنة متبعة لا تحكم عليها القاعدة[١٠] .

فالقرن الاول اذن « شهد ميلاد النحو ، وأن النحو منذ هذا القرن بدأ يحدد لنفسه منهجاً ، ويجرد اصولًا ، ويجند جنوداً متخصصين يفرقون بين طابع عملهم النحوي وطابع عمل اللغويين »[١١] يروى ان يونس بن حبيب اتجه الى متن اللغة ، فكان يسأل الحضرمي عن (السويق) وهل تلفظ (الصويق) فقال له الحضرمي : « نعم ، عمرو بن تميم تقولها . ثم قال له : وما تريد الى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس »[١٢] وهذه دعوة الى عدم الخلط بين (النحو) و (فقه اللغة) . والرواية تشير كذلك الى ان عناية الدارسين كانت تتجه الى متن اللغة كما « تتجه الى النحو ، اي ان العناية باختلاف لهجات القبائل واتخاذها ميداناً للدراسة قد بدأت مع بداية النحو »[١٣] .

يتضح مما تقدم ان اول نحوي حقيقي هو عبد الله ابن ابي اسحاق الحضرمي ، وان منهجه وأنظاره النحوية كان لها اثر بالغ في بعض تلاميذه البصريين ولا سيما عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) الذي « ورث عنه الطعن على العرب الفصحاء اعتداداً بما لديه من القواعد »[١٤] وان هذه السمة التي طبعت نحو الحضرمي كانت طابع النحو البصري ، كما سيأتي به البيان .

(١)
البصـــرة

ليس من وكدي في هذه الفقرة من البحث ان اؤرخ للنحو في البصرة ، او ان استقصي أعلامه في هذه المدينة ، وانما هدفي منها إبراز بضع حقائق ، تقتضيها طبيعة هذا البحث ، ويسوق اليها الغرض منه .

وأولها ان البصرة سبقت الكوفة الى تحمل عبء النحو ، وعملت على رفع قواعده واقامة صرحه . لقد بدأ في هذه المدينة وليداً تمثل في عمل ابي الاسود ومن خلفه من تلاميذه ، ثم انتهى الى عبد الله بن ابي اسحاق ، اذ اثرت عنه وعن تلاميذه أنظار وملاحظات ، ثم اصبح علماً مستوياً ، تام الاصول والقواعد في كتاب سيبويه[١٥] .

لقد افاد سيبويه ممن سبقه من العلماء ، واطلع على اعمالهم المدونة التي لم تصل الينا ، وآرائهم وملاحظاتهم التي بثوها في مجالس الدرس ، وتلقاها عنهم التلاميذ ومن هنا قيل : انه اجتمع على وضع كتاب سيبويه عدد من العلماء[١٦] . اي ان مادته وما انطوى عليه من اراء واقيسة واصول لم تكن لسيبويه وانما كانت لاساتذته ومن تقدمه ، وعلى رأسهم الخليل بن احمد ، الذي اكثر سيبويه من الرواية عنه ، وملأ كتابه بآرائه ومقولاته .

وقد اعترف القدماء بسبق البصرة الى النحو ، فنصوا على ذلك بعبارات ، منها قول ابن سلّام : « وكان لاهل البصرة في العربية قدمة ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية »[١٧] . وقول ابن النديم : « انما قدمنا البصريين اولا لان علم العربية عنهم أخذ »[١٨] ولا عبرة بما ذهب اليه بعض المستشرقين من ان هناك صلة بين نشوء النحو في البصرة والنحو السرياني واليوناني والهندي ، اذ لا يمكن اثبات شيء من ذلك علميا « وخاصة ان النحو العربي يدور حول نظرية العامل ، وهي لا توجد في اي نحو اجنبي »[١٩] وكل ما يمكن قوله ان نحاة البصرة الأولين ربما عرفوا « ان لبعض اللغات الاجنبية نحواً ، فحاولوا ان يضعوا نحواً

www.dorat-ghawas.com

للعربية ، راجعين في ذلك الى ملكاتهم العقلية التي رقيت بعيداً بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الاجنبية ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من المنطق ، مما دعم عقولهم دعما قوياً ، وجعلها مستعدة لأن تستنبط النحو وعلله واقيسته »[٢٠]

وثاني الحقائق ان مرحلة صياغة القواعد ، مدونة كانت او غير مدونة ، كانت ثمرة لمرحلة سبقتها ، وهي مرحلة مراقبة اللغة واستعمالاتها والانتشار في البوادي او الرحلة اليها لسماع اللغة من اهلها ، والوقوف عليها وهي نشاط حي يتبادله الناس او يروونه ويتذاكرونه ، منحدرا اليهم عن اسلافهم ، شعراً او نثراً ، وقد حرص وضاع القواعد وصوّاغها البصريون الاوائل على ان تطرد وتسلم من التعارض والتصادم ، فاداهم ذلك الى ان يطرحوا الشاذ ولا يعولوا عليه ، وكلما وقفوا على شيء منه اولوه او خطأوه ، كما حملهم على ان يقتصروا في جمع اللغة على القبائل خاصة ، قطنت اعماق نجد ، وعاشت في سرة الجزيره ، لم تفسدها الحضارة ، ولم يطرق ديارها واغل او غريب . وأما هذه القبائل فهي تميم وقيس واسد وطيّء وهذيل وبعض كنانة[٢١]

ولم يحرصوا على الاطراد والشمول في وضع القواعد ، وعلى نقاء المسموع حسب ، وانما توسعوا في التعليل ، فطلبوا لكل قاعدة علة ، بل لم تكفهم العلل الظاهرة ، وانما التمسوا عللا وراءها[٢٢] فالتشدد في السماع ، والاطراد في القواعد ، والاهتمام بالتعليل ، كانت الطوابع البارزة التي ظهرت في نحو البصرة .

وثالث هذه الحقائق ، وقد مر جانب منها عند الكلام على الحقيقة الاولى ، ان بيئة البصرة كانت بيئة عقلية اتيح لاهلها بحكم كونها ثغراً ، او مرفأ تجاريا ان يتصلوا بغيرهم من حملة الثقافات الاجنبية ، فنجم عن ذلك ان مال اهل البصرة الى التفلسف ، واعمال العقل في فهم ظواهر اللغة ، وتفسير حقائقها[٢٣]

والحقيقة الرابعة والاخيرة هي ان نحو البصرة ـ كما تقدم ـ يمكن ان يكون (مذهباً) خاصا في تاريخ النحو ، او يمكن أن يكون (مدرسة) لها خصائصها البارزة ، وسماتها الواضحة التي اشرنا اليها . وقد اعترف بهذه الحقيقة القدماء واكثر المحدثين ، فاما القدماء فاثنان منهم قد ذكروا كلمة (مذهب) صراحة ، مقرونة بالبصريين مرة ، وبالكوفيين مرة اخرى ، الاول ابو بكر الزبيدي (٣٧٩ هـ) الذي قال عن ابي موسى الحامض : « كان بارعا في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين »[٢٤] وقال عن ابن كيسان : « وكان بصرياً كوفيا يحفظ القولين ، ويعرف المذهبين ، وكان اخذ عن ثعلب والمبرد ، وكان ميلهُ الى مذهب البصريين اكثر ... و كان ابو بكر بن الانباري شديد التعصب على ابن كيسان والتنقص له ، وكان يقول : خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ولا مذهب البصريين »[٢٥]

والثاني ابن النديم الذي استعمل كلمة (مذهب) ايضاً ، مشيراً الى البصريين والكوفيين ، فقال في ترجمة ابن قتيبة : « انه خلط المذهبين »[٢٦]

ولكن الزبيدي وابن النديم وغيرهما من اصحاب التراجم ، لم يجمعوا كل فريق من النحاة تحت اسم (مذهب) ، وانما عرضوا للنحاة بحسب مواطنهم ، وجمعوا نحاة كل بلدة او اقليم على حدة ، فالنحاة في كتبهم (بصريون) و (كوفيون) و (اهل بغداد) و (مصريون) و (اندلسيون) و (من اهل قرطبة) و (من اهل دمشق)[٢٧] ومما يؤيد اعتراف القدماء بالمذهب البصري والكوفي ، انهم ذكروا حقائق كل منهما فيما وصل الينا من مطولات نحوية ، وفيما دعاه كتابا (الإنصاف) للأنباري و (التبيين) للعكبري .

واما المحدثون فقد ايد كثير منهم وجود (مدرسة بصرية) و (مدرسة كوفية) وكان بروكلمان اول من استعمل كلمة (مدرسة) فقال : « وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة الى (كذا) ثلاث مدارس : البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد »[٢٨] . وتبع في ذلك جوتولد فايل الذي سماهما (المدرسة البصرية) و (المدرسة الكوفية) وان كان لكل منهما موقف سيأتي بيانه . وتتابع الدارسون العرب على استعمال (المدرسة البصرية) و (المدرسة الكوفية) ، ومنهم مهدي مخزومي الذي الف كتاباً سماه (مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو واللغة) وقال انها تقف ازاء المدرسة البصرية ، اي انه قال بوجود مدرستين « بصرية ... وكوفية »[٢٩] وشوقي ضيف الذي الف (المدارس النحوية) وجعل منها (المدرسة البصرية) و (المدرسة الكوفية) وعبد الرحمن السيد الذي الف كتابا سماه (مدرسة البصرة النحوية) وخديجة الحديثي التي الفت كتبا عنوانه (المدارس النحوية وجعلت منها (المدرسة البصرية) او (المدرسة الكوفية) ، وعبده الراجحي الذي الف (دروس في المذاهب النحوية) جعل منها (المذهب البصري) و (المذهب الكوفي) ، وهذا يعني انه اثر كلمة (مذهب) .

واما دلالة كلمة (مدرسة) فقد حددها بعض هؤلاء الدارسين فقال فايل « الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجبهة العلمية ، ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد »[٣٠] وقال المخزومي في كلامه على الكسائي : « ان الكسائي بمنهجه واساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومميزاتها ، فليست المدرسة الا استاذا مؤثراً وتلاميذ متاثرين ، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض واحد ، ونهجوا للوصول اليه منهجاً واحداً »[٣١] والى مثل ذلك ذهب احمد مكي الانصاري

www.dorat-ghawas.com

الذي قال : « ان المدرسة « اتجاه له خصائص مميزة ينادي بها فرد او جماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون »[٣٢] .

ويبدو ان كلمة (مدرسة) الحديثة تطابق كلمة (مذهب) التي قابلتنا عند بعض القدماء والمحدثين ، فالمذاهب في اللغة « المعتقد الذي يُذهب اليه والطريقة والاصل »[٣٣] .

نخلص من ذلك الى ان (المذهب البصري) او (المدرسة البصرية) امر اعترف به القدماء واكثر المحدثين ، لان نفراً من هؤلاء مالوا الى نفي سمة (المدرسية) عن نحو البصرة نفسه ، وانكروا وجود مدارس في النحو العربي ، وسيأتي بيان ذلك .

اما (المدرسة الكوفية) فقد اتضح مما تقدم من اراء القدماء وبعض المحدثين انها قائمة في تاريخ النحو ، وسنعرض في الفقرة الاتية من هذا البحث لمن ينكرها ، وينفي وجودها .

(٢)
الكـــوفـــة

على حين كانت البصرة منصرفة الى وضع النحو ، وارساء قواعده واصوله ، كانت الكوفة منذ تاسيسها « في شغل عن ذلك » بالفقه ووضع مقاييسه وأصوله وفتاواه وبالقراءات وروايتها رواية دقيقة ، مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب ابي حنيفة ، وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءتهم في العالم العربي ، وهم عاصم وحمزة والكسائي ، وعنيت بجانب ذلك عناية واسعة برواية الاشعار القديمة وصنعة دواوين الشعر »[٣٤]

وكان الاتصال بين الحاضرتين ميسوراً ، وكان انتقال العلماء من هذه الى تلك وبالعكس امراً معروفاً ، ولذا « ليس غريباً ان تنتقل الدراسة النحوية من البصرة الى الكوفة ، إما مع الذين شدوا الرحال من الكوفة الى البصرة طلباً للعلم ، ثم رجعوا الى الكوفة ، وإما مع الذين هاجروا من البصرة ليتخذوا من الكوفة دار إقامة »[٣٥]

ومعنى ذلك ان الكوفيين كانوا الى عهد الخليل يتلقون النحو عن البصرة ، وسيأخذونه عن علمائها ، من غير ان يكون لهم رأي فيما يأخذونه ، واكبر الظن ان الخلاف والتنافس بين نحاة المدينتين « انما ظهر في عهد الكسائي وسيبويه بعد وفاة الخليل[٣٦] » .

ويختلف المؤرخون فيمن بدأت على يديه الدراسة النحوية في الكوفة ، فالقدماء يرون ان ابا جعفر الرواسي كان مؤسس النحو في الكوفة ، وان معاذ الهراء كان مؤسس الصرف فيها[٣٧] ، والى مثل ذلك ذهب عبد العال مكرم[٣٨] . واما المخزومي فينفي ذلك ويقول : « فلا معاذ الهراء ولا ابو جعفر الرؤاسي ممن نضعهم في طبقة المؤسسين ، ولم نسمع احداً من الكوفيين تخرج بهما ، واكتفى بما تلقاه عنهما ، وعرف بنحو خاص اسنده منهما »[٣٩] . والى مثل هذا ذهب شوقي ضيف[٤٠] .

والمؤسس الحقيقي للنحو في الكوفة انما هو الكسائي وتلميذه الفراء « فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ، ووضعا اسسه واصوله ، وأعدّه بحنقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري ، مرتبين لمقدماته ، ومدققين في قواعده ، ومتخذين له الاسباب التي ترفع بنيانه »[٤١]

بل ان بروكلمان حين عرض لنشأة النحو في الكوفة والبصرة ، وبعد ان ذكر الخليل وسيبويه قال : « وكان ينافس سيبويه في علم النحو احد قراء القرآن السبعة الكسائي ، الذي سبق له ان علم الرشيد نفسه ، ثم عهد له الرشيد تاديب ولده الامين »[٤٢] . ولم يشر الى نحاة قبل الكسائي ، وهذا يعني ان نحاة البلدين « انما استمدوا النحو من البصرة ومن علم الخليل المتمثل في كتاب سيبويه خاصة »[٤٣] . فالكسائي والفراء كلاهما تخرجا بنحو الخليل ، قبل ان يكون لهما نحوهما الخاص ، كما سيأتي بيانه ،اما الكسائي فقد صحب الخليل وتلمذ له وحضر مجلس يونس بعد وفاة الخليل[٤٤] » ، ثم « درس الكتاب على ابي الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش بعد ذهاب الاخفش الى بغداد ، واتصاله بالكسائي »[٤٥] . وأما الفراء « فقد درس الكتاب ايضاً حتى لقد وجد بعضه تحت وسادته التي كان يجلس عليها »[٤٦] وحضر مجلس يونس بن حبيب .[٤٧]

وقد اجمع القدماء على ان نحو الكوفيين يشكل مذهبا مستقلاً ، او كما نقل بلغة العصر مدرسة مستقلة ، سواء منهم اصحاب التراجم والطبقات مثل ابن النديم في كتابه (الفهرست) والزبيدي في طبقاته ، او اصحاب المطولات النحوية الذين نراهم دائما يعرضون في المسائل المختلفة وجهتي النظر المتقابلتين في المدرستين الكوفية والبصرية ، وقد افرد ابو البركات الانباري مجلداً ضخماً عرض فيه الخلاف بين البصريين والكوفيين) . وفي موسوعات النحو مسائل خلافية كثيرة غير ما ذكر في هذين الكتابين .

واهم ما يميز المذهب الكوفي او المدرسة الكوفية ثلاثة امور :

١ ـ توسع الكوفيين في الرواية « بحيث لا يتشددون في الفصاحة ، كما تشدد البصريون ، وانما ياخذون اللغة من قبائل نزحت من البادية واستقرت .... حتى اخذوا عن الفاف من اعراب الحواضر ، ومع ان الكسائي رحل الى البادية اقتداء بالخليل فاستنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن الاعراب ، وحفظ غير ذلك ، نجده يستعين بأعراب الحطمية الواقفين بباب الرشيد لينصروه على سيبويه في المناظرة المشهورة »[٤٨]

٢ ـ توسع الكوفيين في القياس « فاذا كان شرط صحة القياس

www.dorat-ghawas.com

عند البصريين الكثرة فان ذلك امر لا يحرص عليه الكوفيون »[٤٩] .

فقد كان ابو عمرو بن العلاء « يعتد بالكثير ويسمي القليل لغات ثم لا يقيس عليه ، وانما يدخله تحت العبارة المشهورة يحفظ ولا يقاس عليه ، وكان تمسك البصريين بهذا الموقف رغبة منهم في الوصول بالنحو الى مرتبة الصناعة والعلم المضبوط ، اما الكوفيون فقد كان لهم موقف اخر ربما رموا به كذلك الى غاية نبيلة تتناسب مع الطابع النقلي الغالب على افكارهم ، فلربما قصد الكوفيون باعتدادهم بالقليل الا يهدروا نصا اعتبروه فصيحاً »[٥٠] والملاحظ انهم لم يربطوا الفصاحة بالجغرافية ، وانما اخذوا عمن نزح من اعراب البادية الى الحواضر ، وعدوا كلامهم فصيحاً يقاس عليه[٥١] .

٣ ـ استقلال الكوفيين بعدد من المصطلحات غير التي استعملها البصريون ، وترددت في كتبهم ، ومما استعمله الكوفيون (الخلاف) وهو عامل نصب الخبر في (زيد امامك) و (الصرف) وهو عامل ينصب المفعول معه في مثل (جاء زيد وطلوعَ الشمس) و (التقريب) في مثل (هذا زيد قائما) فـ (هذا) في هذا الموضع من اخوات (كان) و (الفعل الدائم) وهو اسم الفاعل عند البصريين ، و (المكنيّ) و (الكناية) وهو الضمير عند البصريين ، و (الصفة) او (المحل) لما يسمى (الظرف) عند البصريين ، و (العماد) مما يدل على ضمير الفصل عند البصريين ، و (التفسير) لما يسمى التمييز عند البصريين و (النعت) وهو الصفة و (لا) التبرئة في (لا) النافية للجنس و (الجحد) وهو النفي و (ما يجري وما لايجري) وهو الممنوع من الصرف و (لام القسم) وهو لام الابتداء عند البصريين وابدال مصطلحات كل من القاب الاعراب والبناء بالآخر[٥٢] .

ويجب التنبه الى ان الخلاف حول مسائل معينة من النحو « لا ينهض مبرراً لدعوى وجود مدرستين نحويتين ، لان البصريين فيما بينهم يختلفون حول المسالة الواحدة تاويلاً وتخريجا ولكن الاصول واحدة ، ومن ثم يكون مجرد الخلاف حول المسائل بين البصريين والكوفيين ابعد ما يكون عن الدلالة على اختلاف المدرستين وقد كانت عناية كتب الخلاف تنصب في العادة على مسائل الخلاف دون الخلاف حول الاصول ، ولهذا لا يمكن للباحث عن الاسس التي قامت عليها المدرستان ان يلتمسها في الخلاف حول المسائل ، ولكن كتب الخلاف نفسها جاءت دون قصد وتعمد بالكثير من الاصول التي اختلف البلدان حولهما في معرض نقاش الخلاف حول المسائل »[٥٣] .

وينبغي كذلك « ان يستقر في الاذهان ان المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية في الاركان العامة للنحو ، فقد بنت نحوها على ما احكمته البصرة من تلك الاركان التي ظلت الى اليوم راسخة في النحو العربي ، غير انها مع اعتمادها لتلك الاركان استطاعت ان تشق لنفسها مذهباً نحوياً جديداً ، له طوابعه وله اسسه ومبادئه »[٥٤] .

وتاثر كلتا المدرستين بالاخرى امر لا ينفي وجود المتاثر ، فقد تقدم ان الكسائي تلمذ للخيل وقرأ كتاب سيبويه على الاخفش ، وان الفراء قد رحل الى البصرة واختلف الى مجلس يونس بن حبيب وأكب على كتاب سيبويه يقرؤه ويدرسه ، وفعل ذلك جميع ائمة الكوفة من بعده[٥٥] .

واذا كان القدماء قد اقروا المذهب الكوفي او المدرسة الكوفية ، كما تقدم ، فان المحدثين تباينوا في هذا الموضوع ، فاعترف فريق منهم بالمدرسة الكوفية ، وانكرها اخرون .

فمن المحدثين الذين رأوا وجود مذهب كوفي يقابل المذهب البصري احمد امين في كتابه (ضحى الاسلام) تحدث عن المذهبين بطريقة المؤمن الواثق بوجودهما فقال : « ان البصريين كانوا اكثر حرية واقوى عقلاً ، وان طريقتهم اكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، وان الكوفيين اقل حرية واشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً ، فالبصريون يريدون ان ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ، ويميتوا كل اساليب الفوضى من رواية ضعيفة او قول لا يتمشى مع المنطق والكوفيون يريدون ان يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ من غير ان يهملوا شيئاً »[٥٦] .

وامين الخولي وقد كان من مؤيدي المدرسة الكوفية اذ قال[٥٧] : « واما في البيئة النحوية نفسها فهذا الكسائي حين سئل عن اختلاف احوال (اي) وتعليله ، اجاب بقوله : اي كذا خلقت ، ومعنى هذا في وضوح ان تلك الظواهر تنقل ولا تمنطق ولا تفسر بعمل عقلي ، وهو الاساس السليم للمنهج اللغوي ... والكسائي الكوفي باجابته هذه ينكرنا بمدرسة قومه في النحو وما تميل اليه من التتبع اللغوي وعدم التاويلات البعيدة والاممان المنطقي الذي جنحت اليه مدرسة البصرة »

وطه الراوي الذي ايد وجود المدرستين كذلك ، وفاضل بينهما منتهياً الى ان « مذهب البصريين اضبط قياساً ، واتقن رواية ، ومذهب الكوفيين اكثر تشعباً ، واوسع رواية ، وانت ترى ان البصريين في تشددهم وتحكيم قوانينهم ضيقوا على العربية واسعا في كثير من المواطن التي تطلب السعة ، حتى لقد ضاق النحو الذي قدروه بمقاييسهم عن ان يسع نفسه ، وهو في ريعان شبابه ، ونعومة اهابه ، فوقعوا في تلحين خاصتهم ، وكبار أئمتهم »[٥٨] .

وسعيد الافغاني الذي اعلى من شان المدرسة البصرية فقال : « لعلك ما سبق موقن معي إن السماعيين هم البصريون

www.dorat-ghawas.com

لا الكوفيون ، فمن احترام السماع صيانته وحفظه من كل موضوع ، ومن احترامه تحري حال المسموع منه فلا يدس فيه كلام الذين فسدت لغتهم من اعراب الحطمية واشياخ قطر بل ، ومن احترامه الانساوي بين القليل والنادر والاكثر الشائع ، فتفمط حق هذا الاخير ، وأن حشرنا فيه الضعيف والشاذ والخطأ مما يقع فيه اعراب السواد والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان خفر لذمة ونقض لعهد . الحق ان البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه واحترموه ، على حين زيفه الكوفيون وبلبلوه »[٥٩] وقال « أميل اننى الى ان المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح ، ولا مذهب قياس منظم »[٦٠]

وعبده الراجحي الذي جنح الى المدرسة الكوفية فقال[٦١] : « والحق ان الدراسة الموضوعية لكلتا المدرستين تبين ان كثيراً من المسائل التي ذهب اليها الكوفيون اقرب الى الواقع اللغوي ، والى المنهج النحوي الصحيح من تلك التي ذهب اليها البصريون .

وتمام حسان الذي ذهب الى انه « يمكن القول بين نحاتنا القدماء كانوا يكونون مدرستين في النحو العربي »[٦٢] وعلى الرغم من عرضه اسس كلتا المدرستين والاصول التي قامت عليها دون انحياز الى احداهما ، بدا عليه احياناً انه يميل الى الكوفيين ، من ذلك قوله : « اما النحو فقد كان دون شك بضاعة البصريين في المقام الاول ، وعلى رغم ما يصيبه الكوفيون من توفيق في بعض انظارهم ، وما يحققونه من تفوق على البصريين »[٦٣]

وكنا قد اشرنا الى مهدي المخزومي الذي ايد وجود المدرسة الكوفية ، ونضيف هنا انه مال اليها ، فقال فيما قاله : « واذا انعمنا النظر رأينا ان النحو الكوفي اقرب الى روح الدراسة اللغوية من النحو البصري ، وابعد عن الاخذ باسباب المنطق ، وان الكوفيين كانوا اجدى على العربية من البصريين بالرغم من سبق هؤلاء الى تناولهم البحوث اللغوية ، وابداعهم في جوانب منها[٦٤] » . وقال : « ولا يثنينا عن رأينا في التعلق وروايتهم اتقن ، فاننا لا نؤمن بالمقاييس العقلية تقاس بها الدراسة النحوية ، فليست اللغة نشاطا عقليا يضبطه العقل المنطقي ، وليست الظواهر اللغوية مما يفسر بعمل عقلي ، كما كان شان البصريين في تعليلاتهم وتفسيراتهم ، فان الدرس الحديث يقتضي الدارس واجبات أيسرها وأقربها التخلي التام عن التعليل النحوي في اي لون من الوانه النظرية »[٦٥] .

كما اشرنا الى شوقي ضيف ، ونزيد هنا انه ايد وجود المدرستين ثم فضل المدرسة البصرية ، متذرعا بما تذرع به احمد امين في تفضله المدرسة المذكورة[٦٦] .

وأشرنا الى خديجة الحديثي التي ايدت وجود المدرستين البصرية والكوفية ، ووصفت نحاة البصرة بأنهم اقاموا النحو « على اصول سليمة ، وعلى مادة فصيحة ، اقرب ما تكون الى لغة الكتاب العزيز ، ولغة القبائل التي عُدت لغتها قمة الفصاحة والنقاء ، واتبعوا في سبيل ذلك منهجا قنعوا بسلامته وجودته ، بعد طول التتبع والمباحثة والمناقشة في مجالسهم »[٦٧]

ومن المستشرقين يوهان فك الذي قال : « كان لعلماء البصرة مذاهب معتمدة في القياس النحوي تختلف عن مذهب الكوفيين ، كما سلك كل من القبيلين في تفسير الظواهر طريقا خاصا »[٦٨] وهو بذلك يشير الى « اعتماد الكوفيين على المسموع وتعديل اصولهم وقواعدهم تبعا له ، مهما كان من القلة والندرة والى القياس في مذهب البصريين وقبولهم الاغلب من المسموع ، وتاويلهم ما لا يساير اصولهم ، او وصفه بالشذوذ .»[٦٩]

واوليري الذي قال : « المدرسة البصرية تنقد المسموعات ، وتطرح منها ما لا يتفق مع قواعدها الموضوعة ، فيما تتقبل المدرسة الكوفية جميع المسموعات التي تكون مجموعة لا باس بها من المواد . ويبدو من النظرة الاولى ان المنهج البصري افضل . ولكنه يجب ان يلاحظ ان هذا المنهج - يعني منهج البصريين - يقتضي ان توضع الامثلة لتتفق مع الاصول المرسومة ، بينما نجد النحاة الكوفيين يحورون اصولهم لتلتقي مع المسموعات »[٧٠]

واما الذين لم يطمئنوا الى ما ذهب اليه القدماء واكثر المحدثين من وجود مذهب كوفي مكتمل ، ونظروا الى هذا الموضوع نظرة الريبة والشك ، فقد ذكر المخزومي بعضهم فقال : « فالذي اعلمه ان اول من شك في وجود مذهب مكتمل للكوفيين هو (جو تولد فايل ، ثم حاكاه في رأيه المترجم لثعلب من الكوفيين في دائرة المعارف الاسلامية ، وبروكلمان كما يشير اليه كلامه في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية)[٧١] » . واضيف الى هؤلاء باحثين آخرين هم ابراهيم السامرائي وعلي ابو المكارم وحلمي خليل . وسأخص كلا منهم بوقفة اعرض فيها رأيه .

اما فايل الذي حقق كتاب (الانصاف) للانباري وكتب مقدمة له بالالمانية ، ونشره عام ١٩١٣ فقد قال : « ومع عظيم الإجلال لمناقبهم - يعني الكوفيين - في غير ذلك من النواحي ، فانهم لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة »[٧٢] .

وقد عزا رأي المخزومي رأي فايل هذا الى ان صاحبه « لم يقف على مصنفات الكوفيين فلم يلم بآراء الكوفيين ، وأعلامهم التي يستطيع الدارس ان يرسم للمذهب الكوفي بها صورة واضحة الخطوط والملامح »[٧٣] .

ومعنى هذا ان (فايل) لم يطلع على كتاب (الحدود)

www.dorat-ghawas.com

و (معاني القرآن) للفراء ولم يقف على (مجالس ثعلب) لانها كانت يومئذ من المخطوطات التي يحجم الدارسون عن الاطلاع بتحقيقها ونشرها . ومن هنا رأى فايل ان « علم النحو برمته بصري[٧٤] » وان يونس بن حبيب البصري كان صاحب التاثير الموجه في كلا الكوفيين : الكسائي والفراء ، وقد كان ليونس « قياس خاص في النحو ومذاهب تفرد بها ، وخالف فيها الخليل وخالفه فيها سيبويه[٧٥] » وقد بنى (فايل) رأيه هذا على :

(١) ان اسم يونس قرن باسم الكوفيين في بضع مسائل ذكرها الانباري .

(٢) ما ذكره اصحاب الطبقات من ان الكسائي والفراء كانا قد سمعا منه ، وأخذا عنه ، وان الفراء خاصة استكثر عنه .

غير ان المخزومي نقض هاتين الحجتين ، فاما رده الاول فجاء فيه « فاذا كان يونس اثر فيهما في بضع مسائل فمن ترى صاحب التاثير فيهما من سائر المسائل التي خالفا فيها يونس والبصريين »[٧٦] واما الحجة الثانية فقد نقضها المخزومي قائلا : « واما ان الكسائي والفراء قد سمعا منه كما يقول اصحاب الطبقات فلا يدعم زعمه ايضاً ، لان اتصال الكسائي والفراء بيونس لم يكن من قبيل اتصال التلميذ باستاذه ، ولم يصح ان يكون الكسائي اخذ عنه »[٧٧] .

لقد اشارت المصادر الى ان الكسائي حين رجع من رحلته في البادية ، وجد الخليل قد مات ، وتصدر يونس في مجلسه ، فجلس الكسائي الى يونس « فجرت بينهما مسائل اقر له يونس بها وصدره في موضعه »[٧٨] .

واما اتصال الفراء بيونس فقد قال المخزومي عنه : « لا احسبه الا اتصال دارس طلعة ، يعني بان يلم باطراف الدرس ، وان يقف على الاراء المختلفة ، ولا اعلم ان الفراء كان قد انقطع الى يونس والى البصرة انقطاعاً ، اخذ في اثنائه عنه ، او تلمذ له ، او تاثر به ، ولعل اتصاله به كان عابراً »[٧٩] وقال المخزومي : « الحق ان الدارس ربما وقف على بضع روايات للفراء عن يونس ولكنها روايات لا تتعلق بالنحو ، ولا احسبني وقفت على حكاية للفراء عن يونس تتعلق بموضوع من موضوعات النحو »[٨٠]

وذكر شوقي ضيف حجة ثالثة لفايل في انكاره المدرسة الكوفية هي « كثرة الخلافات بين ائمتها على نحو ما سيلقانا بين الكسائي وتلميذه الفراء ، وكانها لا تؤلف جبهة علمية موحدة »[٨١] وقد رد ضيف هذه الحجة قائلًا : « هو دليل منقوض ، فقد كان نحاة الكوفة يكونون جبهة طالما تناظر افرادها مع افراد جبهة البصرة ، واكثر ابن جني وغيره من ذكر اراتها ، بل لقد افرد لها العلماء المصنفات على نحو ما مر بنا آنفاً عند ابي البركات الانباري في كتاب (الانصاف)[٨٢] » ثم قال : « اما مخالفة الفراء لأستاذه الكسائي في بعض المسائل « فهذا من حقه ، على نحو ما خالف سيبويه استاذه الخليل ، وعلى نحو ما خالفهما معاً تلميذهما الاخفش في كثير من المسائل ، وهم جميعاً ائمة المدرسة البصرية .[٨٣] »

ويبدو ان فايل لم يسلم من التناقض ، فقد قال في مقدمته لكتاب الانصاف وفي معرض حديثه عن طريقة كل من الكوفيين والبصريين في تفسير القرآن « فعلى حين كان اهل الكوفة يفسرون القرآن تفسيراً يلتزم الدقة في متابعة النص ، ظهر عند اهل البصرة ميل الى اكراه النص القرآني على قبول معنى خاص ، والتمحل في حمله على مطابقة قواعدهم النحوية »[٨٤] وقال في حديثه عن الفراء : « بل يبدو عليه طابع من يؤسس فرقة او مذهباً خاصاً ، ويختلف عن سيبويه اختلافا بينا »[٨٥]

اليس « فيما ذكره » جوتولد فايل من الفارق بين البصريين والكوفيين في تفسير القرآن الكريم ، وفيما ذكره من فروق بين سيبويه والفراء ما يشير الى الخطوط الاساسية للمذهب او المدرسة النحوية التي انكرها ، وقال : لا وجود لها[٨٦] » .

واما ماجاء في مادة (ثعلب) من دائرة المعارف الاسلامية فهذا نصه : « على اننا لا نستطيع في الحقيقة ان نقول بوجود مذهب مكتمل لنحاة الكوفة ، وهو أمر سبق ان بينه فايل ، واذ عُد اصحابه المزعومون ـ يعني ثعلباً ـ فريقاً قائماً برأسه ، فانما ذلك من اختراع النحويين المتاخرين »[٨٧]

واما ما قاله بروكلمان فهو انه « قد افترض المرب فيما بعد استناداً الى روايات التاريخ الادبي ان الخلاف كان قائماً بين مذهبين لغويين هما مذهب البصرة ومذهب الكوفة ، وان هذا الخلاف لم يسوّ الا بعد اجيال ، عندما اندمج المذهبان ، وتوحدا في مدرسة بغداد ، ولكن الذي يظهر لنا ان المنافسات بين علماء هاتين المدرستين ـ البصرة والكوفة ـ قد بولغ فيها الى حد لا مبرر له[٨٨] » .

واما ابراهيم السامرائي فقد ذهب الى ان الموروث من علم النحو هو علم واحد ، وان اختلاف الاوائل فيه لا يجاوز شيئاً يسيراً يمس الفروع ، ولا يقترب من الاصول[٨٩] . ورأى ايضاً ان مصادر البصريين هي مصادر الكوفيين نفسها « مع شيء يسير من الاختلاف ، كان يتوسع الكوفيون في الأخذ عن الاعراب ، وان يغلبوا المسموع على المقيس ، او انهم توسعوا في الاعتماد على القراءات ، وما يعرض لها من مسائل لم ترد كثيراً من المسموع المشهور »[٩٠] .

وقد رفض السامرائي ايضاً ان يكون البصريون وحدهم قد اعتمدوا على العقل في تعليل اللغة او استندوا الى المنطق في تفسير ظواهرها ، ورأى ان للكوفيين ايضاً تعليلات وتفسيرات كثيرة

www.dorat-ghawas.com

مستمدة من العقل ، او قائمة على المنطق ، فقال : « انك تجد في كتاب الانصاف لابي البركات الانباري من تعليل الكوفيين وتاويلهم ضروباً لا تتصل بالعلم اللغوي على نحو ما تجد من ذلك في تعليلات البصريين ، وانت واجد هذا في اغلب المسائل الخلافية التي جمعها الانباري في هذا الكتاب »[٩١]

ونفى السامرائي كذلك ان تكون المصطلحات التي اعتمد عليها الكوفيون معلماً منهجياً اخر ينشأ عنه اتجاه خاص ، وذلك ان كثيراً من هذه المصطلحات قد رددها البصريون ، وتداولوها في كتبهم[٩٢] .

وبعد ان نفى ان تكون الفوارق المنهجية بين البصريين والكوفيين من العمق بحيث ينجم عنها اتجاهان متقابلان خلص الى القول : « ولعل من اليسير ان نخلص الى رأي الصق بالعلم التاريخي من الاقوال القائمة على التقليد تارة وعلى الحماسة التي لا تخدم العلم تارة اخرى ، فنقول : ان للكوفيين اراء في النحو ونظريات تختلف عن اراء غيرهم ، نلمس ذلك عند الكسائي والفراء وثعلب ومجموع هذه الاراء قد اتسع فيها القدماء فاسموها مذهب الكوفيين ، وتجاوز المحدثون هذا الحد فاسموه مدرسة ، وهي لا تعدو ان تكون نظراً اخر لا ينقض الاصول ، بل يعلق بالفروع ، وما قيل في مصادر الكوفيين واساليبهم في النظر لا يبتعد كثيراً عما سلكه البصريون ، وليس الاتساع في السماع عند هؤلاء والتشدد في القياس لدى الاخرين يدفعنا الى القول ان علم هؤلاء جديد ، يؤلف (مدرسة) ، يختلف عن علم الآخرين و (مدرستهم) »[٩٣]

ولم يخرج علي ابو المكارم عما ذهب اليه السامرائي في نفيه كلتا المدرستين ، فقد صرح بفساد الفكرة التي شغلت كثيراً من الدارسين في النحو العربي ، قدامى ومحدثين ، وهي وجود مدارس نحوية تتميز كل منها باسلوبه الخاص ، ومنهجها الذاتي[٩٤] . وقال : « ان المنهج الذي سارت فيه الدراسة النحوية في مدنه المختلفة تحكمه قواعد عامة لم يُخرج عنها ، وأن تفاوت تاثير بعضها وانن ليس ثمة مدارس ـ بالمعنى الذي يقطع بوجود منهج متميز لكل منها ـ في النحو ، وانما هناك تجمعات مدنية ، وهذه التجمعات تتحرك في اطارات متشابهة ، وتطبق اصولًا واحدة ، وان اختلفت فيما بينها في بعض الجزيئات ، فانه اختلاف لا ينفي عنها وحدة المنهج ، واتفاق الاصول »[٩٥]

اما حلمي خليل فقد ذهب الى مثل ما ذهب اليه هذان الباحثان ، فرأى ان النحو العربي اتجاه واحد ، ارست البصرة دعائمه ، واقامت اصوله ، وتبعها فيه علماء النحو في الكوفة وغيرها من المواطن التي ازدهرت فيها الثقافة اللغوية يومذاك ، كمصر والشام والأندلس .

لقد انطلق حلمي خليل في رأيه هذا من مفهومه للمدرسة اللغوية ، الذي حدده قائلًا : « ان مصطلح (مدرسة لغوية) يعني وجود نظرية لغوية مستقلة ذات اصول منهجية وفكرية جديدة ينادي بها احد العلماء ، ويلتف حوله عدد من الباحثين يؤمنون بهذه النظرية ويطبقونها ويعملون على تطويرها والدفاع عنها ، واستمرار هذه النظرية ودوامها عبر السنين شرط اساسي في تكوين المدرسة اللغوية التي لا يمكن ان تستحق هذا الاسم او يعترف بوجودها بمجرد وضع النظرية ، وانما لا بد ان تعيش ، ويكتب بها البقاء مدة من الزمن[٩٦] » .

ومعنى هذا « ان اتخاذ المعيار الجغرافي اساساً لتقسيم العلوم الى مدارس مختلفة لا يكون صحيحاً اذا لم تصحبه او تواكبه نظرية علمية جديدة ، لأن وجود جماعة من الباحثين او العلماء في مكان واحد لا يكفي لتكوين مدرسة علمية الا اذا وجدت نظرية علمية ، ومن ثم لا يكون الداعي لاطلاق اسم المدرسة العلمية عليهم وجودهم في مكان واحد ، وانما اشتراكهم في العمل وفق نظرية واحدة ، حتى ولو وجدوا في بقاع مختلفة »[٩٧] ثم قال حلمي خليل : « فاذا نظرنا على ضوء هذا المفهوم لمصطلح (المدرسة العلمية) الى ما يسمى في تاريخ الفكر اللغوي العربي باسم المدارس النحوية فسنجد ان هذا المصطلح لا ينطبق الا على البصرة وحدها ، ولعل القدماء كانوا اهدى حساً عندما قالوا ان هناك خلافاً بين البصرة والكوفة ، وانما المحدثون هم الذين اطلقوا هذه التسمية حتى شاع تقسيم الفكر اللغوي الى مدارس فهناك بجانب البصرة والكوفة مدارس اخرى مثل المدرسة البغدادية والاندلسية والمصرية »[٩٨] .

فحلمي خليل اذن يرى ان البصرة وحدها خليقة بان يقال عنها انها صاحبة اتجاه نحوي ، او واضعة نظرية لغوية ، وان هذه النظرية التي سلم بها علماء العربية جميعاً في الكوفة وغيرها تتمثل في السماع والقياس والعامل ، ولا عبرة بعد ذلك في ان الكوفة خالفت البصرة في التوسع في السماع والقياس ما دامت « لا تطرح اصلًا من هذه الاصول جانباً او تغيره »[٩٩] . ولا عبرة ايضا فيما استعملت الكوفة من مصطلحات تختلف عن مصطلحات البصرة « فالمصطلحات في نهاية الامر هي الجانب السطحي من النظرية العلمية ، وليست الجانب الاصيل فيها ، اذا لم يصحب هذا الخلاف منطلقات نظرية وفكرية ومعرفية جديدة ... والا فماذا يغير من النظرية البصرية اذا ما اطلقنا على حروف الجر مصطلح الصفة ، اذا كان هناك اتفاق على ان هذا العنصر اللغوي يحدث الجر ، ومثل ذلك لو اطلقنا على النفي مصطلح الجحد او غيره من المصطلحات النحوية التي انفردت بها الكوفة »[١٠٠] .

www.dorat-ghawas.com

وواضح ان هذه الادلة التي ساقها حلمي خليل هي الادلة التي استند اليها ابراهيم السامرائي وعلي ابو المكارم ، غير ان الجديد في ادلة خليل يتمثل في ذهابه الى ان النظرية لا تكون نظرية حتى يكتب لها الدوام ، وتجد لها انصاراً عبر العصور ، وهذا ما لم تحظ به الكوفة « ولو ان العلماء وجدوا فيما يسمى بالمدرسة الكوفية شيئاً يختلف اختلافاً جذرياً ، نظرياً وفكرياً وتحليلاً عن النحو البصري لاتجهوا اليه ، وتوسعوا فيه ، ولكنهم وجدوا في النظرية البصرية وفي صنيع الكوفة تشابهاً جعلهم يتجهون الى الاصل »[١٠١] كما ان الجديد في ادلة حلمي خليل يتمثل في زعمه ان القدماء كانوا احدى حسا عندما قالوا ان هناك (خلافا) بين البصرة والكوفة ، ولم يسموا ذلك الخلاف (مذهبا) .

وارى ان ما ذهب اليه هؤلاء الفضلاء لا يسلم من تعارض ، ولا يبرأ من وهن ، ففي الوقت الذي يرون فيه ان الاصول التي اعتمد عليها البصريون والكوفيون واحدة ، يقرون جميعاً ان خلافاً بين الفريقين حدث في تطبيق هذه الاصول ، ومعنى ذلك ان الخلاف ليس كما قال السامرائي اقتصر على الفروع ، ولم يمس الاصول ، كما ا ن وحدة الاصول لا تلغي استقلال الكوفيين باتجاه خاص ، لان العبرة ليست بالاصول التي يقوم عليها الفكر اللغوي ، وانما في طريقة تناول هذه الاصول ، واسلوب التعامل معها ، وقد أقر القدماء والمحدثون ، ومنهم السامرائي وابو المكارم وحلمي خليل ، ان هناك خلافاً بين الكوفيين والبصريين في تطبيق هذه الاصول .

ومما يحمل على التناقض في موقف بعض منكري المدرسة الكوفية ان حلمي خليل في الوقت الذي نفى فيه اي طابع خاص في فكر الكوفيين اللغوي قرر ان في صنيع الكوفيين مباديء وصفية ينادي بها علماء اللغة الآن ، وان الكوفيين « اقرب في درسهم للعربية الى طبيعة الظاهرة اللغوية والمنهج العلمي في درسها »[١٠٢]

اما التهوين من شأن المصطلح الكوفي ، والنظر اليه على انه خلاف سطحي ، لا يتعلق بجوهر النظرية البصرية ، فأمر مردود ، لان بعض مصطلحات الكوفيين أملاها فكرهم اللغوي ، وساقت اليها طبيعة نظرتهم الى الظواهر اللغوية ، من ذلك مصطلح (الخلاف) و (الصرف) اللذان يشيران الى ان الكوفيين لم يسلموا بـ (العامل) تسليماً تاماً ، ولم يردوا اليه بعض ما يظهر على اواخر الكلم من حركات .

واما القول ان النحو الكوفي لم يكتب له الدوام ، ولم يجد من الانصار ما وجده النحو البصري ، وان هذا يُعد دليلاً على عدم استقلال النحو الكوفي بمنهجية خاصة ، فانه دليل متهافت ، لان الذي يقرر (النظرية) ويمنحها حق الوجود ، ما تقوم عليه من اسس ، وما تشكل به صورتها من ملامح ، سواء اطال عمرها أم قصر ، وكثر انصارها ام قلوا ، فلانحسار الانصار عن فكرة معينة او نظرية مخصوصة امور تكون وراء العلم احياناً ، وقد اشار الى ذلك حلمي خليل نفسه حين قال : « وربما لعبت الظروف السياسية دوراً في انتشار النظرية البصرية »[١٠٣] .

بقي ان نشير الى ما زعمه حلمي خليل من ان القدماء لم يسموا صنيع الكوفيين (مذهبا) ، فنقول انه زعم مردود ، فقد مر بنا فيما سبق ان مصطلح (مذهب استعمله بعض القدماء مقروناً بالبصريين مرة وبالكوفيين مرة اخرى .

(٣)
بـغـــــــداد

لقد كانت (مدرسة بغداد) او (المدرسة البغدادية) محور خلاف بين المحدثين ، فمنهم من قال بوجودها ، ومنهم من نفاها ، وسنبدأ هذه الفقرة باقوال عدد من الفريق الاول .

ويبدو ان المحدثين الذين اثبتوا وجود مدرسة بغدادية ، كانوا يصدرون عما جاء في فهرست ابن النديم الذي قسم النحاة على ثلاثة اقسام : بصريين وكوفيين وجماعة ثالثة خلطت المذهبين ، وذكر منهم ابن قتيبة وابا حنيفة الدينوري وابا موسى الحامض والزجاجي وابن كيسان وابا عبد الله نفطويه وابا علي ابن سليمان الاخفش الصغير[١٠٤] .

ويؤيد ان المحدثين كانوا متأثرين بابن النديم في ابتداع مدرسة ثالثة انهم اقاموها على « اساس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين ، وهو الذي كان يعبر عنه ابن النديم بخلط المذهبين »[١٠٥] . ولكنه لم يسم الاتجاه (مذهباً) مع انه ـ كما تقدم ـ يستعمل كلمة (مذهب) ويقرنها بالبصريين حينا وبالكوفيين حينا آخر . وكان فلوكل وبروكلمان وفايل قد سبقوا المحدثين العرب الى التأثر بمقالة ابن النديم تلك ، وحاولوا ان يقدموا للدارسين صورة عن واقع المذاهب النحوية ، ورجال كل مذهب[١٠٦] .

اما فكرة المدرسة البغدادية فقد تبناها فلوكل[١٠٧] وانكرها فايل ، لان ذلك امر طبيعي يتمشى مع انكاره مدرسة الكوفة .[١٠٨] وكان احمد امين « اول من تكلم على مدرسة بغداد من الباحثين العرب »[١٠٩] ، فقال : « ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سبباً في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما ، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة »[١١٠] .

وجاء الشيخ محمد المنطاوي ليقتفي خطا احمد امين في الاعتراف بالمدرسة البغدادية وبيان خصائصها[١١١] ، حتى وصفته خديجة الحديثي بانه « كان اكثر المحدثين عن هذا المذهب وخصائصه وضوحاً وايجازاً »[١١٢] واوضح انه كرر المقولة التي تدعي ان المذهب البغدادي يقوم على مزج مذهبي البصريين

www.dorat-ghawas.com

والكوفيين[113] .

وكان سعيد الافغاني يرى ان الكوفيين نشروا نحوهم في بغداد « التي قصدها نحاة بصريون ايضاً ، ونشات طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين ، وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي »[114]

ونهب احمد مكي الانصاري الى وجود مدرسة بغدادية ، ولكنه سلك الى هذا الرأي خطوات عجيبة ، فقد جعل المدرسة الكوفية حقيقة تاريخية لا مناص منها ، ورأى ان لها شخصيتها المستقلة في حقبة من الزمن ، ثم بدأها وختمها بابي جعفر الرؤاسي ، وكانه جعل من هذا الرجل استاذ المدرسة وتلميذها في آن واحد . و « اما الكسائي فقد رأى الانصاري انه يمزج المذهبين لانه لم يخلص للكوفية ، كما لم يخلص للبصرية . وأما الفراء فقد تعهد ما بناه الكسائي بالرعاية وأتمه واستوى الدرس النحوي الجديد ، الذي يقوم على الاختيار والمزج على يديه درساً حياً ، له شخصيته المتميزة ، وطابعه الخاص ، واذا كان الكسائي هو واضع رسوم المذهب فقد جاء الفراء من بعده ليكسب المذهب ملامحه ، ويبرز شخصيته »[115]

وهذا يعني ان الفراء في رأي الانصاري « طراز جديد من الدارسين ، فبينما هو كوفي باعتداده بالسماع واحترامه القراءات اذ به بصري في تمسكه بالقياس ، ووقوفه في وجه الشواذ ، وطعنه على القراءات السبع على حد قول الانصاري ، فهو اذن يجمع في دراسته خصائص ما اخذه عن الكوفيين وخصائص ما اخذه عن البصريين ، وهو جدير بأن يكون مؤسس مدرسة بغداد التي تمخض عنها تلاقي المدرستين ، وامتزاج مزاياها في دراسته »[116] .وقد ناقش المخزومي اراء الانصاري وأبطلها .

وأما شوقي ضيف فقد اقر وجود مدرسة بغدادية ، تقوم على الانتخاب من اراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً ، وقد هيأ لها ذلك في زعمه ان افرادها تلمذوا للمبرد وثعلب ، وتعمقوا مصنفاتهما ، ونفذوا من خلال ذلك الى اراء جديدة ، ورد شوقي ضيف على من ينفي وجود هذه المدرسة مستدلا بان علمين من اعلام جيلها الثاني وهما ابو علي الفارسيّ وابن جني ينسبان نفسيهما الى البصريين ، ويعبران عنهم في كتبهما بكلمة (اصحابنا) ، وينتصران في اغلب الامر للاراء البصرية ، فقال : « ولا يكفي ان ينسب ابن جني وابو علي الفارسي انفسهما في البصريين لعدهما حقا منهم ، فانهما اتبعا في مصنفاتهما المذهب البغدادي الانتخابي ، وان كانت قد غلبت عليهما النزعة البصرية . وهي لا تخرجهما على دوائر الاتجاه البغدادي القائم على الانتخاب من اراء البصريين والكوفيين وعلى غرارهما الزجاجي اخر الجيل الاول من البغداديين »[117] .

وقد سلك شوقي ضيف في المدرسة البغدادية ابن كيسان والزجاجي وابا علي الفارسي وابن جني وابن الشجري وابا البركات الانباري والزمخشري[118] . وقد حاول شوقي ضيف ان يوفق بين بغدادية هؤلاء الاعلام وما عرف من ميل بعضهم الى الكوفيين وميل بعضهم الاخر الى البصريين فذهب الى ان هذه المدرسة « اتجهت اتجاهين ، اتجاها مبكراً عند ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط ، نزع فيه اصحابه الى اراء المدرسة الكوفية ، واكثروا من الاحتجاج لها ، مع فتح الابواب لكثير من الاراء البصرية ، وايضاً مع فتح باب الاجتهاد لبعض الاراء الجديدة . واتجاها مقابلاً عند الزجاجي ثم عند ابي علي وابن جني نزع فيه اصحابه الى اراء المدرسة البصرية ، وهو الاتجاه الذي ساد فيما بعد لا في مدرسة بغداد وحدها بل في جميع البيئات التي عنيت بالدراسة النحوية »[119] وقد ناقش المخزومي اراء ضيف هذه مناقشة طويلة ، وانتهى الى تفنيدها .

من الذين قالوا بوجود المدرسة البغدادية طه الراوي[120] ومحيي الدين توفيق[121] وخديجة الحديثي[122] وهدى قراعة التي جعلت الزجاج مؤسسا للمذهب البغدادي[123] وعبد الحميد حسن[124] وعبد الرحمن السيد[125] واحمد مختار عمر[126] وعبده الراجحي الذي تابع شوقي ضيف قائلًا : « وشهدت بغداد نشاطا حيا في حلقة هذين العالمين الجليلين ـ يعني المبرد وثعلب ـ واشتد الصراع بينهما وكثرت المناظرات مما جعل الدارسين يقبلون عليهماكليهما ، ويأخذون عنهما معاً ، ثم يتخيرون من هذا وذاك ما يراه كل واحد مناسباً تفكيره واتجاهه ، ازدهر هذا النشاط في بغداد اذن اواخر القرن الثالث ، وما كاد القرن الرابع يبدأ حتى اخذت مدرسة بغداد تتميز بمنهجها الخاص ولم يكن هذا المنهج جديداً من حيث الاسس او طرائق الاستنساخ ، ولكنه منهج بني على الانتقاء من المدرستين البصرية والكوفية ، ومن ثم رأينا الرواد الأول لمدرسة بغداد يقبلون على الكوفة ، ويزيدون من الاخذ عنها ، ولكنهم يأخذون عن البصرة وان كان ميلهم الى الكوفة اشد ، واشهر هؤلاء الرواد ابن كيسان (ت ٢٩٩ هـ) وابن شقير (ت ٣١٥ هـ) وابن الخياط (ت ٣٢٠ هـ) ، وفي الاتجاه الثاني كان عدد اخر من العلماء يقبلون على البصرة ويأخذون عن الكوفة لكن ميلهم الى البصرة اشد واشهر هؤلاء الزجاجي وابو علي وابو الفتح بن جني[127] » .

ومن الذين تابعوا شوقي ضيف في موقفه من المدرسة البغدادية ، محمود حسني محمود الذي جعل اطروحته للدكتوراه (المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي) ، وقد فصل فيها ما اجمله شوقي ضيف عن مدرسة بغداد في كتابه (المدارس النحوية) .

www.dorat-ghawas.com

وقد حاول هذا الباحث ان يجد لهذه المدرسة خصائص وسمات ، فجاء بما هو في نظر الباحثين من سمات المدرسة الكوفية وطوابعها في المنهج والدراسة . لقد رأى ان المدرسة البغدادية تقوم على الاتساع في السماع ، وعلى ضم القبائل المجاورة للحضر الى الاطلس اللغوي ، واستشهد على ذلك بان ابن جني اخذ عن بني عقيل المجاورين للموصل ، وعن محمد بن العساف الشجري العقيلي[١٢٨] وتقوم على الاتساع في القياس وعدم قصره على الشائع المتداول من كلام العرب ، فقد قاسوا على النادر والشاذ ، فقالوا (حمولي) في النسبة الى (حمولة) و (ركوبي) في النسبة الى (ركوبة) كما قال العرب (شنوئي) في النسبة الى (شنوءة) بابقاء الواو[١٢٩] . وتقوم كذلك على قبول القراءات الشاذة « فكل ما ورد انه قرىء به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا ام آحادا ام شاذاً وقد اطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية »[١٣٠] وقد عنى الباحث بـ (الناس) هنا الكوفيين عند الفراء ، والبغداديين الذين اتبعوا الكوفيين على حد تعبير محمود حسني محمود[١٣١] .

ومن خصائص المدرسة البغدادية ايضاً الاحتجاج بالحديث ـ كما قال الباحث ـ وهي خصيصة تحمل على التوسع في السماع ، والاحتجاج بشعر المولدين على نحو ما فعل الزمخشري (وهو بغدادي في نظر ضيف وهذا الباحث) باحتجاجه بشعر ابي تمام[١٣٢] . وهذا ايضاً من باب التوسع في السماع .

وكرر محمود حسني محمود ما ذهب اليه شوقي ضيف من ان المدرسة البغدادية تخللها تياران مختلفان « وكان سريان تيارين في المدرسة النحوية سنة تسير عليها اية مدرسة نحوية في اللغة العربية ، فقد كان يسير في مدرسة البصرة تياران نحويان ، احدهما متساهل يعظم لغة العرب ، ويتزعمه ابو عمرو بن العلاء ، وثانيهما (كذا) متشدد يخطيء العرب ، ويتزعمه ابن ابي اسحاق ، وكان يسير في مدرسة الكوفة ايضا تياران نحويان احدهما متساهل ومتاثر بمنهج ابي عمرو ابن العلاء ويتزعمه الكسائي ، وثانيهما متشدد يقبح القراءات ويخطيء العرب في مواضع كثيرة ، ويتزعمه الفراء »[١٣٣] ومن هنا « فاننا نرى ان بعض البغداديين كانوا يميلون الى مدرسة البصرة دون تعصب على مدرسة الكوفة ـ وقد بقي الاتجاهان يسيران جنباً الى جنب ، غير ان اتجاه الميل الى مدرسة البصرة هو الطابع الذي تغلب على نحاة المدرسة البغدادية ، واستمر هذا الطابع عبر القرون المتأخرة يتسم به النحو العربي سواء في العراق ام فارس ام مصر ام الاندلس »[١٣٤]

واما المحدثون الذين نفوا المدرسة البغدادية فمنهم عبد الفتاح شلبي الذي ذهب الى انه لم تكن هناك « مدرسة بغدادية قائمة بنفسها ، لها تعاليمها ، غاية ما في الامر ان رجالاً خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية ، فرأوا رأيا من هذه ورأيا من الاخرى ، وان كانوا في مذهبهم الاصيل يميلون الى هذه او يميلون الى تلك ، فيكونون بصريين او كوفيين حسب ، فابن كيسان يخلط المذهبين لانه اخذ عن المبرد وثعلب ، وكان ميله الى البصريين اكثر ، وكذلك ابن قتيبة وابن شقير شديد التعصب مع الكوفيين مع اعتقاده مذهب البصريين[١٣٥] . ويضع شلبي ابا علي فيمن يخلطون المذهبين ، لانه على الرغم من نزعته التي تميل به الى البصرة كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية .[١٣٦]

وفاضل صالح السامرائي الذي نفى المدرسة البغدادية ايضا وقال : « انه لا يصح اطلاق اسم مذهب او مدرسة الا ان تكون هناك اسس مستقلة واراء متميزة واضحة محددة ، والا فهو مذهب إما بصري وإما كوفي او نحوهما ، وان المكان وحده لا يصح ان يسم المدرسة باسم ما ، فتعد مدرسة نحوية مستقلة ، كما لا يصح ان يسم القائمين بها ، فلا يصح متلاً عد المبرد الا من البصريين وثعلب الا من الكوفيين مع انهما سكنا في بغداد . وهب ان نحويا بصريا سكن مدينة ما وبقي محتفظاً بارائه البصرية فهل يعد الا بصرياً »[١٣٧] . ثم قال : « وينبغي ان ينظر في هذا الامر من ثلاث نواح حتى يمكن اطلاق اسم مدرسة عليه : من حيث الاسس التي تتبعها في اصول البحث ، ومن حيث المصطلحات ومن حيث المسائل الخلافية ، فان استقلت بكل ذلك فهي مدرسة خاصة ، والا فهي تبع ، وينظر النحوي من هذه الامور كذلك ، ويمكن ان نضيف ناحية اخرى هي نظرته الى نفسه ، اين يعد نفسه في البصريين مثلاً ام في غيرهم »[١٣٨] وقال : « انه لا يشترط في النحوي ان يقول بجميع اراء مذهبه ، فله ان يجتهد ضمن حدود هذا المذهب فيوافق رأي الكوفيين او ينفرد بطائفة من المسائل ، وهذا الاجتهاد لا ينفي عنه صفته في انتمائه الى مدرسته »[١٣٩]

ومازن المبارك الذي قال : « على اننا اذا قلنا ان بغداد اتسعت للمذهبين النحويين البصري والكوفي وان من علماء النحو فيها من كان بصرياً ومنهم من كان كوفيا ، ومنهم من لم يكن بالبصري المحض ولا بالكوفي المحض ، فلسنا نعني ان هذه الطائفة الثالثة تشكل مدرسة بغدادية جديدة ، ذات منهج نحوي مستقل وانما نعني ان علماء بسطوا المذهبين واختاروا منهما ، واذا كان بعض هؤلاء العلماء البغداديين اقوال تفردوا بها من دون المذهبين فان ذلك لا يعني قيام مذهب جديد ، ولا يعني نشوء مدرسة بغدادية »[١٤٠]

وعلي مزهر الباحث الذي قال : « ان النحاة في بغداد بعد المبرد وثعلب صاروا يأخذون من الكوفيين مرة ومن البصريين مرة ،

www.dorat-ghawas.com

مما دفع بعض المحدثين الى التوهم بان هذا يمثل مدرسة تقوم على الانتخاب من الفريقين ، اشتهر من هؤلاء الذين نسبوا الى ما سمي بمدرسة بغدادية عدد منهم ابو الحسن بن كيسان وابو بكر ابن الخياط وابو الحسن علي بن سليمان الاخفش »[١٤١]

وطارق الجنابي الذي قال : ان دارسي النحو « لم يتفقوا حتى الان على ان هناك مدرسة نحوية متميزة يمكن ان ندعوها بالمدرسة البغدادية ، ولو كانت دعوى الانتقاء من اراء المدرستين والمزج بينهما تشكل منهجا خاصاً في النحو لافترضنا ان الاخفش الاوسط واحد من متقدمي نحاة بغداد ، لانه عاش في بغداد واتصل بالكسائي شيخ الكوفيين ، وتابعهم في خمسين مسالة ، وهو قد خالف سيبويه في مسائل كثيرة ، ولم يقل لنا احد ان الاخفش بغدادي . واذا خالف المبرد سيبويه ، وتتبع كلامه في (مسائل الغلط) فلا يعني هذا ان المبرد بغدادي ولا أن وشائجه بمدرسة البصرة التي كان علما بارزاً من اعلامها قد انبتت ، لان سيبويه كان رأس نحاة البصرة بعد الخليل فان الخلاف او الاختلاف معه انما هو من باب اختلاف التلاميذ في المدرسة الواحدة »[١٤٢]

ومهدي المخزومي الذي اقر فكرة (المذهب البغدادي) او (المدرسة البغدادية) في كتابه (مدرسة الكوفة) اذ قال : « وأما البغداديون فقد اخذوا عن البصريين والكوفيين ـ وانتخبوا من هؤلاء وهؤلاء »[١٤٣] . وقال : « فليس المذهب البغدادي الا مذهبا انتخابيا فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعاً »[١٤٤] ولكنه عاد عن رأيه هذا ، فذهب الى نفي المدرسة البغدادية ، وجرد لهذا الموضوع المهم كتابا كاملًا عنوانه (الدرس النحوي في بغداد) .

وقد بنى المخزومي نفيه مدرسة بغداد على امور :

(١) ان ابن النديم لم يكن يعني بما سماهم من النحاة « جماعة ثالثة خلطت المذهبين »[١٤٥] ما يعنيه المحدثون ، وهو ان هذه الجماعة اتخذت لها مذهباً نحوياً متميزاً يقف بازاء المذهبين ـ والدليل ان ابن قتيبة الذي جعله ابن النديم على رأس هذه الجماعة الثالثة كان بصرياً ، اخذ عن البصريين ، ولم يأخذ عن ثعلب على الرغم من انه عاصره ، وعاش معه في بغداد ، ولكنه كان يحكي في كتبه عن الكسائي والفراء ، وكانت حكايته عنهما مطعناً عليه ، فكان البصريون يضعفون كتبه ، ويتهمونه بالتخليط .

فابن النديم اذن ـ في رأي المخزومي ـ لم يعن بالجماعة التي خلطت المذهبين الا البصريين الذين ترخصوا اواسط القرن الثالث وما بعده ، وصاروا ينقلون عن الكوفيين ، ويحكون بعض ارائهم ، والا الكوفيين الذين تحللوا من قيود العصبية فحكوا ما ترجح لديهم من اقوال البصريين ، وكان هذا المزج لافتا نظر ابن النديم ، لانه لم يكن يفعله الدارسون الاوائل المتزمتون البصريين وكوفيين .

فخلط المذهبين عند ابن النديم وعند السيرافي في (اخبار النحاة البصريين) وعند الزجاجي في (الايضاح) وعند الانباري في (نزهة الالباء) جاء نتيجة لزوال التعصب ، وتاثر اعلام كلتا المدرستين بعضهم ببعض ، ولم يكن يعني احداث مذهب نحوي .

فالسيرافي عد ابن كيسان بصرياً ، ولم يثنه عن هذا انه كان يخلط المذهبين ، وعد ابا بكر بن السراج بصرياً ، ولم يحل دون ذلك انه كان يحكي في (الاصول) عن سائر الكوفيين . « فقد يكون الدارس اذن بصريا تتفق وجهة نظره مع وجهة نظر الكوفيين في هذه المسالة او تلك ، وقد يكون كوفياً يلتقي مع البصريين في هذا القول او ذاك ، ومثل هذا الخلاف قد يقع بين تلاميذ المدرسة الواحدة ، فلا يخرج بهم عن جدود المذهب الذي ينتمون اليه »[١٤٦] .

(٢) ان « مذهب الكوفيين لم ترسم خطوطه في الكوفة وانما شب ونضج في بغداد وعلى يد الكسائي اولًا ثم على يد الفراء ثانيا »[١٤٧] . و « اذا كان الكسائي والفراء كوفيين مولداً ومنشا فلم يتصدرا حلقات الدرس في الكوفة ، ولا عُرفا بين النحاة قبل اقامتهما في بغداد ، وتصدر مجالس الدرس فيها »[١٤٨] .

اما الرؤاسي والهراء فما كانت لهما اعمال نحوية تدم على تمكن من هذا الدرس ورسوخ قدم فيه . ولذا لا يصح ان يبدأ المذهب الكوفي بهما .

(٣) ان الدارسين الذين بدؤوا النحو الكوفي ، وتوالوا على ترسيخه ، وارساء حقائقه انما كانوا في بغداد ، واشير اليهم في تاريخ النحو على انهم « بغداديون »[١٤٩] ومما يؤيد هذا ان المبرد كان معجباً بكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت ، وكان يقول في تقويم هذا الكتاب : « ما رأيت للبغداديين كتاباً خيراً من كتاب يعقوب ابن السكيت في المنطق »[١٥٠] . ويعقوب بن السكيت الكوفي ، ولكن المبرد لم يسمه كذلك وانما اطلق عليه وعلى امثاله من الدارسين الكوفيين اسم (البغداديين) .

وكان ابن قتيبة يحكي عن الكوفيين في كتبه ـ كما تقدم ـ واذ روى عنهم قال : « قال بعض البغداديين » او « البغداديون يقولون كذا وكذا او يرون كذا وكذا[١٥١] » فاسم البغداديين على هذا انما يطلق على الدارسين الذين اقاموا في بغداد وهذا يذجر الى اوائل الدارسين في بغداد وهم الكسائي واصحابه ، والفراء واصحابه وثعلب واصحابه ولا يقتصر الاسم على الجيل الذي اعقب ثعلبا والمبرد كما يزعم المحدثون »[١٥٢] .

www.dorat-ghawas.com

وكان ابو علي يستعمل لفظ (البغداديين) للدلالة على الكوفيين من ذلك قوله : « قال ابو علي : وحكى احمد بن يحيى عن بعض البغداديين »[١٥٣] واحمد بن يحيى هذا هو ثعلب ، واذا حكى ثعلب عن بعض البغداديين فذاك احد اصحابه او شيوخه من الكوفيين . ومثله ابو الفتح بن جني الذي كان يطلق (البغداديين) على (الكوفيين) ايضاً ، قال : « ومن ذلك قول البغداديين ان الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره نحو زيد مررت به واخوك اكرمته ، فارتفاعه عندهم انما هو لأن عائدا عليه فارتفع بذلك العائد »[١٥٤] ورأي البغداديين هنا هو رأي الكوفيين[١٥٥] .

(٤) لقد صنف الزبيدي في طبقاته النحويين في كل مصر على حدة ، بادئا بالبصريين « لتقدمهم في العربية وسبقهم الى التأليف فيها »[١٥٦] . وقد بدأ بابي الاسود واصحابه ماراً بطبقة الخليل وتلاميذه وطبقة ابي عثمان المازني وفيها السجستاني والرياشي وقطرب وطبقة ابي العباس المبرد وطبقة اصحابه وذكر منهم الزجاج وابن السراج ومبرمان وابن درستويه وعلي بن سليمان الاخفش الصغير الذي عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين وابا بكر بن شقير وابا بكر بن الخياط اللذين عدهما ابن النديم فيمن خلط المذهبين . وطبقة اصحاب الزجاج وفيها الزجاجي الذي عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين .

« هؤلاء هم البصريون في تصنيف الزبيدي بدئوا بابي الاسود وختموا بتلاميذ المبرد وتلاميذ تلاميذه ، ومنهم من كان تلميذاً لابي العباس ثعلب كابي بكر بن شقير وابي بكر بن الخياط وابي الحسن علي بن سليمان المعروف بالاخفش الصغير »[١٥٧]

واما طبقات الكوفيين في تصنيف الزبيدي فهي طبقة الرؤاسي وفيها معاذ الهراء وطبقة الكسائي وطبقة الفراء وممن فيها القاسم بن معن وعلي بن المبارك الاحمر وهشام بن معاوية وطبقة اصحاب الفراء سلمة بن عاصم وطبقة اصحاب سلمة وفيها ثعلب ، وطبقة اصحاب ثعلب وفيها هارون بن الحائك وابو موسى الحامض وابو بكر بن الانباري وابو عبد الله نفطويه وابو الحسن ابن كيسان[١٥٨]

« فالزبيدي لم يكن يرى ما رآه ابن النديم ولا جعل من تلاميذ المبرد وثعلب طبقة على حدة ، سلكت في الدرس النحوي منهجاً جديداً يقوم على انتخاب مزايا المذهبين كما اراد المحدثون ان يفهموه »[١٥٩] .

ومعنى صنيع الزبيدي ان عدم التحرج في ان ياخذ دارس بصري رأيا لكوفي او العكس ، لم يكن يخرج الدارس عن طابعه العام .

(٥) ان مصطلح (الكوفيين) قد ظهر على ايدي المبرد وتلاميذه ، فقد استطاع المبرد بعد رحيله من البصرة الى بغداد ، ان يجتذب الدارسين اليه ، ويصرف كثيراً منهم عن مجلس ثعلب ، ولما كان الفريقان فريق المبرد وفريق ثعلب بغداديين ، ولادة ومربى ، فقد رأى المبرد اصحابه ان يسموا انفسهم (البصريين) وان يسموا فريق ثعلب (الكوفيين) ، « ولعل تصنيف ابي سعيد السيرافي كتابه (اخبار النحويين البصريين) كان تأكيداً لما بدأه المبرد وقد قصره على النحويين البصريين ، تجاهلاً لمنافسيهم وغمزاً لهم ، وايماء الى ان غير البصريين ليسوا في العلم بدرجة يذكرون معها بازاء البصريين .

ان الكوفيين قبل عصر المبرد وما بعده لم يكونوا يعرفون بهذا الاسم ، وان احداً منهم لم يسم مذهبه بالكوفي ولم يسمهم كذلك خصومهم الاوائل ، وانما كانوا يشيرون اليهم على انهم بغداديون ـ كما تقدم ـ غير ان المبرد واصحابه اصروا على تسمية انفسهم بالبصريين وتسمية منافسيهم وخصومهم بالكوفيين ، ومع ظهور تسمية (الكوفيين) فان التسمية القديمة لهم (اي البغداديين (لم تختف تماماً بل ظلت تتردد في الكتب الى جانب الاسم الجديد « وكان ورود التسميتين في بعض المصنفات مصدر وهم المتأخرين ان البغداديين فريق ، والكوفيين فريق آخر .... وبقي الدارسون في العصور المتعاقبة يخوضون في هذا الوهم ، ولم يلتفتوا الى انهما اسمان لمسمى واحد »[١٦٠] . و « جاز هذا الوهم على الدارسين المحدثين فراحوا يتمسكون به ، ويثبتون عليه فكرتهم بوجود مذهب ثالث او مدرسة ثالثة سموها بغدادية ، ووجدوا في كلام ابن النديم ومن تابعه ما يؤيد فكرتهم »[١٦١] .

يتضح مما تقدم ان ليس في تاريخ النحو مذهب بغدادي ، او مدرسة بغدادية متميزة ، تقف بازاء المدرستين البصرية والكوفية ، وان (كوفي) و (بغدادي) اسمان لفريق واحد ، او مدرسة واحدة ، هي المدرسة الكوفية .

(٤)
مصر والشام والاندلس

ازدهر الدرس النحوي في بغداد ، منذ ان انتقل اليها الكسائي من بلدة (الكوفة) ، واخذ ينشر علمه فيها ، ويبني في مجالسها وحلقات الدرس فيها اسس مدرسته البغدادية التي سميت فيما بعد (الكوفية) . وجاء الكوفي ليرسخ هذه المدرسة ، ويرفع من بنيانها ، حتى نمت على يديه ، واستوت كاملة ناضجة ، بحيث استطاعت ان تقف بازاء سابقتها المدرسة البصرية .

وجاء بعد الفراء تلاميذه ، ثم آل الامر الى ثعلب ، احد تلامذة تلاميذ الفراء ، فبقي الدرس النحوي على يديه مزدهراً حيا ، حتى دخل المبرد بغداد ، قادماً اليها من سامراء ، بعد ان نزح عن مدينته البصرة ، طلباً للشهرة ، وبحثاً عن المال والجاه .

www.dorat-ghawas.com

لقد تنافس العالمان ، وكان بين منهجيهما اختلاف وتفاوت ، وهو الاختلاف الذي يفصل مدرسة البصرة عن مدرسة الكوفة ، ويؤلف معالم كل منهما وطريقتها . ويبدو ان بعض تلاميذ ثعلب ، وهما الزجاج وابو علي الدينوري قد ذهبا الى حلقة المبرد . فنال اعجابهما بما كان يبسط من علل ، ويستنبط من اصول واقيسة فلزماه ، ومالا عن شيخهما ثعلب . وكانت هذه بادرة انحسار المذهب الكوفي ، وتوجه الدارسين الى منافسة المذهب البصري .

لقد نجم عن هذه البادرة امران : الاول ان الدارسين الذين عاصروا ثعلبا والمبرد او خلفوهما ، قلت لديهم العصبية المذهبية . وصاروا ينظرون في نحو المدرستين ، ولا يترددون في ان ياخذوا ما يقتنعون به من كل منهما . وهو امر زعم بعض المحدثين انه اتجاه جديد ، دعوه (المدرسة البغدادية) ، وقد ظهر لنا انه محض وهم ، وقع فيه هؤلاء .

الثاني ان المدرسة البصرية ظلت تنمو في بغداد وتترسخ ، وتجذب اليها الانصار والمؤيدين ، حتى بسطت سلطانها على مجالس الدرس ، وفرضت سيطرتها على عقول الدارسين ، فكان من اثر ذلك اثار منها في مصنفات الدارسين الذين ينزعون نزعة بصرية ، كما سبق ان تخلل النحو الكوفي في اثناء تشكله اثار من المدرسة البصرية[١٦٢] .

ونجد الدرس البصري مهيمناً على العقول منذ اوائل القرن الرابع الى يومنا هذا ، غير ان النحاة في جميع بيئات الدرس عراقية او مصرية او اندلسية ، كانوا يتابعون هذا المذهب على سبيل التقليد « لان مصادر الدرس التي كان يصدر عنها الدارسون الاوائل لم يعد لها وجود ، والاختلاف في المذهب انما يقوم على اساس الافادة من المصادر الحية ، في استخراج الاصول العامة في الدرس ، او بعبارة ادق على اساس اسلوب الافادة منها في ذلك »[١٦٣] .

ومعنى ذلك اننا قد نجد « في كلام الزمخشري او في كلام ابن الحاجب او غيرهما ما يدل على انتصار للبصريين او انتساب الى مذهبهم ، ولكن ذلك ليس الا متابعة خالصة وتقليداً محضا ، لان اسلوب الدرس البصري او الكوفي كان لم يعد له وجود »[١٦٤] ان المتاخرين من النحاة في جميع البيئات لم يجدوا امامهم « الا مصنفات في النحو تضمنت وجهات نظر مختلفة فراحوا يختارون هذا الجانب او ذاك بحسب ملاءمته لاسلوب الدرس الذي اصطنعوه »[١٦٥]

ويبدو ان هذه الحقيقة وهي سيادة النحو البصري على جميع بيئات الدرس ، لم ترض بعض الباحثين ، فادعى شوقي ضيف ان نحاة مصر والشام كانوا ينحون منحاة البغداديين ، ويسيرون باتجاه مدرسة بغداد[١٦٦] .

وذهبت خديجة الحديثي في احد قوليها الى مثل ما ذهب اليه شوقي ضيف حين قالت : « هذه مدرسة مصر والشام وهي مدرسة كانت تعتمد اول الامر اعتماداً كبيراً على مدرسة البصرة . ثم سلكت على يد ابي علي الدينوري وابي جعفر الدهاس مسلك البغداديين ، وسارت على نهجهم في المزج بين المذهبين . وقد اتضح هذا وضوحاً كبيراً في كتب ابن مالك الذي كان اختياريا »[١٦٧] .

وذهب عبد العال مكرم الى وجود مدرسة نحوية في مصر والشام ، وان هذه المدرسة اتجهت اتجاهين : الاول كان متاثراً بالنحو البصري ، والثاني لم ينكر النحو البصري ولم ينكر النحو الكوفي ، ولكنه ايضاً لم ينكر نفسه ، فقد كان له رأي في كثير من مسائل النحو وموضوعاته ، ومثل لهذا الاتجاه بابن مالك وابن هشام[١٦٨] .

ووضح ان ما ادعاه شوقي ضيف وتابعه فيه غيره ، هو ان نحاة مصر والشام اتجهوا اتجاها اختياريا ، وهو اتجاه اتسمت به مدرسة بغداد المزعومة ، لذا كان الاولى به ان يجعل هؤلاء النحاة امتداداً لهذه المدرسة ، والا يجعل منهم مدرسة رابعة .

وقد نفى المخزومي ان يكون لنحاة مصر والشام اتجاه غير اتجاه البصري ، بعد ان ناقش شوقي ضيف مناقشة طويلة ، خلص منها الى هذه الحقيقة[١٦٩] .

ونفى عبد الحميد حسن ان يكون لنحاة مصر والشام « مذاهب في النحو جديدة ، او اراء مستحدثة ، وجل ما هنالك انما هو دراسة لاراء المتقدمين واحياء لتراثهم ، وترجيح لبعض الاراء ، وتعليق عليها بالشرح والتدوين »[١٧٠]

وذهب الى هذا ايضاً طارق الجنابي فقال : « ان النحو في مصر والشام كان بصرياً في الصورة والمنهج ، وطرائق البحث ، وان اغلب النحاة كانوا اسارى هذا القيد البصري ، لم يستطيعوا منه فكاكاً ، واي كتاب الف في هذا الوقت ، لن تجد فيه غير التمسك بالقياس ، وقصره على الشائع والذائع من كلام العرب ، وغير التعليلات المنطقية والتاويلات الفقهية والفلسفية التي ابعدت النحو البصري عن دائرة الدراسة اللغوية الصافية ، وصار النحو غاية لذاته لا وسيلة في فهم اللغة وتقويم الالسنة »[١٧١]

وعادت خديجة الحديثي عن رأيها المشار اليه فقالت : « وخلاصة القول اننا لو تتبعنا اخبار النحويين الذين نسبوا الى مدرسة مصر لوجدنا ان معظمهم من البصريين الذين رحلوا اليها حاملين كتاب سيبويه او علمه ، او من غير المصريين الذين نزحوا اليها من الاندلس اوالمغرب او غيرهما ، ولاتضح انه لم يدخل مصر كتاب في النحو الكوفي ، ولا شيخ درس على الكوفيين »[١٧٢]

اما الاندلس فقد بكر اليها النحو الكوفي او البغدادي اولاً ،

www.dorat-ghawas.com

وظل مسيطراً على حلقات الدرس فيها ، فقد ادخل جودي بن عثمان وهو اول نحوي اندلسي كتاب الكسائي ، وظل يدرس على طريقة الكوفيين حتى توفي عام ١٩٨ هـ ثم سار على طريقته من جاء بعده .[١٧٣] اما النحو البصري فقد تاخر ظهوره في الاندلس ، وكان الأفْشَنيق (ت ٣٠٧ هـ) من اوائل من حمله الى الاندلس واذاعه فيها[١٧٤] وتعاقب الدارسون بعده « وهم يتسمون بانهم ينزعون نزوعاً بصرياً واضحاً ، يلاحظ الدارس ذلك حين يستعرض الشيوخ الذين اخذوا عنهم المصنفات التي صنفوها ، حتى يكاد النحو عندهم لا يتجاوز حدود ما رسمه المبرد والزجاج والزجاجي واصحابهم ولم يلاحظ فيما صنفوا او قالوا شيئاً جديداً يمكن ان يعد اضافة »[١٧٥]

لقد انكمش النحو الكوفي (البغدادي) بعد ان بسط ظله على الاندلس زمنا طويلًا « ولكنه لم يضمحل فقد استطاع ان يظهر وهو ينبض في قوة في دعوة ابن مضاء الى احياء هذا الدرس في رده على النحاة »[١٧٦] .

فابن مضاء ـ كما يرى المخزومي ـ « نحوي على مذهب الكوفيين واذا لم يعلن انتسابه اليهم فاقواله والامثلة التي عرضها تدم على ارتباطه بالكوفيين ومذهبهم »[١٧٧] ويرى المخزومي ان الكسائي خاصة كان المؤثر الكبير في نحو ابن مضاء « لان ثقافة ابن مضاء القرآنية القائمة على السماع والرواية هي التي وجهته قِبَل المذهب الكوفي الظاهري السلفي بوجه عام ، وقِبَل الكسائي بوجه خاص ... وليس من قبيل المصادفة ان يرى ابن مضاء ان من الصواب ان يقال لمن يسأل عن علة رفع الفاعل : (كذا نطقت العرب) فقد سبقه الكسائي الى مثله ، فقال حين سئل عن (أي) وعن اختلاف احوالها ، وتعليل ذلك الاختلاف (اي كذا خلقت)[١٧٨] » .

فالنحو في الاندلس كما يرى المخزومي كان دائراً في فلك النحو البغدادي او الكوفي اولًا ، ثم في فلك النحو البصري ، حتى ظهر ابن مضاء (ت ٥٩٢ هـ) ويبدو ان فكرة (المدرسة الاندلسية) مجرد وهم وقع فيه طه الراوي الذي صنف النحاة فذكر انهم بصريون وكوفيون وبغداديون واندلسيون[١٧٩] ومحمد الطنطاوي الذي عرض لطوائف النحاة الاربع التي سبق لطه الراوي ان عرض لها ، ولكن « ما قدمه الدارسان الفاضلان انما هو محض افتراض ما زال يفتقر الى الدلائل والشواهد ، ولم يفلحا في تقديم هذه الدلائل بما عرضاه »[١٨٠] وعبد الحميد حسن الذي قال : « وقد استحدث الاندلسيون والمغاربة في النحو مذهبا رابعا الى جانب مذاهب البصريين والكوفيين والبغداديين ، ودعامة هذا المذهب هذه الاراء النحوية التي ابداها علماؤهم في بعض المسائل وقد اشير اليها في كتب النحو »[١٨١] .

اما شوقي ضيف فلم يقل ان الاندلسيين ابتدعوا مذهبا رابعا ، ولكنه رأى انهم نهجوا نهج البغداديين في الاختيار من اراء نحاة البصرة والكوفة ، واضافوا الى ذلك اختيارات من اراء البغداديين وخاصة ابا علي الفارسي وابن جني[١٨٢] .

وتابعته خديجة الحديثي التي قالت : « سار النحاة في الاندلس على العناية بالمذاهب الثلاثة ، واصبح النحو خليطاً منها » ، وقالت : « ومع ان النحاة اخذوا يعنون بهذه المذاهب الثلاثة ، ويمزجون بينها فان عناية النحويين الاندلسيين ظلت لا تتخطى كتاب سيبويه ، وظل الاندلسيون يتوفرون على الكتاب حتى اشتهر امره في البيئة الاندلسية ، واشتهر في العالم العربي انه لا توجد بيئة عربية اخرى بلغت في العناية بالكتاب وتحرير نصه وكشف غوامضه ما بلغته الاندلس ، مما دفع بالزمخشري الى ان يرحل في شبيبته عن خوارزم الى مكة لقراءته على نحوي اندلسي كان مجاوراً بها »[١٨٣] .

وما دام طابع النحو في الاندلس عند ضيف اختياريا ، فقد كان الاولى به ان يجعل هذا الاتجاه امتداداً لمدرسة بغداد التي اعتقد وجودها ، والا يسميه (مدرسة اندلسية) ، تحاشيا للاكثار من المدارس ، وتلافيا لهذا الترخص في اطلاق (مدرسة) على نحاة كل اقليم .

ويبدو ان خديجة الحديثي مترددة بين متابعة شوقي ضيف مرة ، وجعلها الاتجاه في الاندلس اختياريا ، وقولها مرة اخرى ان عناية الاندلسيين لم تتخط كتاب سيبويه ، وهذا اقرار بسيادة النحو البصري في ذلك الصقع ، وبان النحاة الاندلسيين لم يؤلفوا مدرسة مستقلة ، او اتجاها قائما بنفسه .

واذا كان نحو ابن مضاء في نظر المخزومي صدى للنحو الكوفي ، واحياء لسلطان هذا النحو الذي هيمن على بيئة الدرس في الاندلس بعض الوقت ، فان حلمي خليل ـ الذي يذكر النحو الكوفي ـ بعد دعوة ابن مضاء اتجاهاً جديداً ، وثورة على ما وضعت البصرة من اصول ، وكان خليقاً بهذا الاتجاه ان يؤلف مدرسة في الاندلس لو وجد له الانصار ، وسيطر على عقول الدارسين ، يقول حلمي خليل : « كان من الممكن ان نطلق فعلًا على الاندلس اسم المدرسة النحوية لو ان نظرية ابن مضاء القرطبي التي وضع اصولها في كتابه الرد على النحاة وجدت صدى فيما كتبه علماء اللغة والنحو من بعده ، ولكنها وقفت عند حدود الدعوة الى اعادة النظر فيما وضعته البصرة من اصول نحوية ومباديء تحليلية ، دون ان يؤمن بها احد ، او يدافع عنها ، وقد كانت نظرية ابن مضاء جديرة بان تلفت نظر النحاة ، لانها نادت باصول فكرية ، ومناهج تحليلية جديدة تختلف عما وضعته البصرة »[١٨٤]

www.dorat-ghawas.com

خاتمة
في قيمة موضوع (المدارس النحوية) واهميته

لقد لفت نظري ان بعض الذين كتبوا في موضوع (المدارس النحوية) يقللون من اهمية ، او يرون ان من العناء الذي لا طائل تحته ان يشغل الباحثون نفوسهم فيه ، فما دامت اللغة التي استنبط منها النحو العربي واحدة ، فان اختلاف الدارسين في النظر اليها ، وتباينهم في تفسير ظواهرها ، لم ينجم عنه نحو متعارض او متعدد(١٨٥)

وهذا يعني التقليل من اهمية المناهج التي تدرس في ضوئها لغة ما ، او تفسر بالاستناد اليها ، او الى معطياتها ظواهر تلك اللغة وقضاياها ، وهو رأي لا يؤيده الدرس الحديث . فصحيح ان اللغة موضوع الدرس واحدة ، وان خصائصها ثابتة ، لا يسع الدارس ان يحيد عنها مهما كان منهجه ، وايا كانت طبيعة نظرته ، ولكن النتائج التي سيخرج بها كل باحث في تفسير هذه الخصائص ، ستكون مغايرة للنتائج التي ينتهي اليها غيره ، وما هذا التباين في التفسير الا لاختلاف منهجيهما ، وتباين طبيعة نظر كل منهما .

واذا كانت النتائج التي يتوصل اليها كل منهج لا تغير واقع اللغة وخصائصها وظواهرها ، فانها ستكون ذات اثر كبير في فهم ابناء اللغة لذلك الواقع ، ومعرفتهم السبب الذي يفسر هذه الظاهرة او تلك الخصيصة .

فللنحو اذن وظيفتان : الاولى تسجيل ظواهر اللغة ، ووصفها كما ينطق بها اهلها ، والثانية تفسير هذه الظواهر ، وبحث اسبابها ، واذا كان المنهج الذي يتبعه الدارس لا يؤثر كثيراً في الوظيفة الاولى ، فانه يؤثر تأثيراً بالغا في الوظيفة الثانية ، اذ من المسلم به ان يتفاوت التفسير بحسب المنهج ، قربا وبعداً ، وضوحاً وغموضاً ، ومسايرة لطبيعة اللغة ، او مجافاة لتلك الطبيعة ، وسينعكس هذا التباين على متعلمي اللغة ، فيميلون الى تفسير دون اخر ، بل يكون فهمهم للاستعمال اللغوي احياناً ايسر او ادق تبعاً لنوع التفسير .

ومن هنا تأتي اهمية البحث في (المدارس النحوية) عند العرب ، وضرورة تحرير هذا الموضوع مما لحقه من مزاعم واجتهادات ، لتخلص لنا الحقائق واضحة جلية .

وها قد انتهى بنا البحث الى ان للعرب في دراسة اللغة والنحو منهجين : احدهما بصري والاخر كوفي ، وان اهل العصر الحديث مدعوون الى الاعتماد على المنهج الثاني بعد اصلاحه وتطعيمه بما توصل اليه الدرس الحديث ، لنعيد وصف العربية من جديد ، ونفسر ظواهرها وخصائصها تفسيراً بعيداً عن تكلف المناطقة ، وتعليلات الفلاسفة والمتكلمين ، وبذلك سيكون النحو العربي اكثر اشراقاً ، واصدق تمثيلاً للغة الضاد .

الهوامش

(١) الفهرست : ١٠٢ .
(٢) الأصول : ٣١
(٣ - ٤) المدارس النحوية (شوقي ضيف) : ١٦ ، ١٧
(٥ - ٨) الاصول ٣١ ، ٣٢ .
(٩) المائدة : ٣٧ .
(١٠ - ١٤) الاصول : ٣٣ وينظر مصدره
(١٥ - ١٦) تاريخ النحو وأصوله : ٥٧ والمدارس النحوية (شوقي ضيف) : ١٧ وما بعدها ٥٦ ، ٥٧
(١٧) طبقات ابن سلام : ٥
(١٨) الفهرست : ١٠٢
(١٩ - ٢٠) المدارس النحوية (ضيف) : ٢٠ .
(٢١) المزهر : ١ / ٢٢١ ، ط . الحلبي
(٢٢ - ٢٣) المدارس النحوية (ضيف) : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .
(٢٤ - ٢٥) طبقات اتلنحويين واللغويين : ١٥٢ ، ١٥٣
(٢٦) الفهرست : ٨٥
(٢٧) المدارس النحوية (الحديثي) : ١٥
(٢٨) تاريخ الادب العربي : ٢ / ١٢٤ ، ١٢٥
(٢٩) المدارس النحوية (الحديثي) : ٢١
(٣٠) ابو زكريا الفدا) ٣٥٢ وينظر مصدره .
(٣١) مدرسة الكوفة : ٦٥
(٣٢) ابو زكريا الفراء : ٣٥٢
(٣٣) القاموس المحيط (نهب) .
(٣٤) المدارس النحوية (صيف) : ١٥٣ .
(٣٥ - ٣٦) مدرسة الكوفة : ٦٥ ، ٦٧
(٣٧) المدارس النحوية (ضيف) : ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٣٨) مجلة الضاد . ٣
(٣٩) مدرسة الكوفة : ٦٨
(٤٠) المدارس النحوية : ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٤١) المدارس النحوية (ضيف) : ١٥٤ .
(٤٢) تاريخ الشعوب الاسلامية :٢ / ٢٧
(٤٣) مدرسة الكوفة : ٦٨
(٤٤) معجم الادباء : ١٣ / ١٦٩
(٤٥ - ٤٦) مدرسة الكوفة : ٦٩ وينظر مصدره .
(٤٧) معجم الادباء : ٢٠ / ١٠
(٤٨ - ٥٣) الاصول : ٣٨ ، ٣٩ وما بعدها
(٥٤ - ٥٥) المدارس النحوية (ضيف) : ١٥٨ ، ١٥٩

www.dorat-ghawas.com

(٥٦) ضحى الاسلام : ٢ / ٢٩٦
(٥٧) مناهج تجديد : ٨١
(٥٨) نظرات في اللغة والنحو : ١٢
(٥٩ - ٦٠) من تاريخ النحو : ٧٤ ، ٧٥
(٦١) بحوث في المذاهب النحوية : ١٢ .
(٦٢ - ٦٣) الاصول : ٤٢ : ٢٧
(٦٤ - ٦٥) مدرسة الكوفة : ٣٥٠ ويُنظر ...
(٦٦) المدارس النحوية : ١٦١
(٦٧) المدارس النحوية (الحديثي) : ٥٠
(٦٨) العربية : ٦١
(٦٩) تاريخ النحو واصوله : ١٧٩
(٧٠ - ٧٢) مدرسة الكوفة : ٣٥٠ ، ٣٥١ ويُنظر مصدره
(٧٣ - ٧٤) الدرس النحوي في بغداد : ٩٧
(٧٥) مدرسة الكوفة : ٣٧٥
(٧٦ - ٧٧) الدرس النحوي في بغداد : ٩٨ .
(٧٨) معجم الادباء : ١٣ / ١٦٨
(٧٩ - ٨٠) الدرس النحوي في بغداد : ١٠٠
(٨١ - ٨٣) المدارس النحوية : ١٥٦
(٨٤ - ٨٦) تاريخ النحو واصوله : ١٧٨ ، ١٧٩ ويُنظر مصدره
(٨٧) مدرسة الكوفة : ٣٥٢ ويُنظر مصدره
(٨٨) تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢ / ٢٨ ، ط بيروت
(٨٩ - ٩٣) المدارس النحوية : ٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٩٤ - ٩٥) تقويم الفكر النحوي : ٢٤٣ ، ٢٤٤
(٩٦) العربية وعلم اللغة البنيوي : ٤٢ ويُنظر : البحث اللغوي عند العرب : ٩٩ ، ١٠٠
(٩٧ - ١٠٣) العربية وعلم اللغة البنيوي : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .
(١٠٤ - ١٠٧) الدرس النحوي في بغداد : ١٨٦ ، ١٨٨ .
(١٠٨) المدرسة البغدادية : ٥٢
(١٠٩) المدارس النحوية (الحديثي) : ٢٥٩
(١١٠) ضحى الاسلام : ٢ / ١٩٣
(١١١) نشأة النحو : ١٣٥ ، ١٣٦
(١١٢) المدارس النحوية : ١٦٠
(١١٣) نشأة النحو : ٢٣٦
(١١٤) في اصول النحو : ٢٢٩ .
(١١٥ - ١١٦) الدرس النحوي في بغداد : ٢٤٠ ، ٢٤١
(١١٧ - ١١٩) المدارس النحوية (ضيف) : ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ وما بعدها .
(١٢٠) نظرات في اللغة والنحو : ٩ ، ١١
(١٢١) ابن الانباري في كتابه الانصاف : ٢٨٨ .
(١٢٢) المدارس النحوية : ٣٩٥
(١٢٣) ... ومذهبه ... وما لا يُصرف : ١٢
(١٢٤) القواعد النحوية : ١٠٥ .
(١٢٥) مدرسة البصرة النحوية : ٥٢٨ .
(١٢٦) البحث اللغوي عند العرب : ٩٨
(١٢٧) بحوث في المذاهب النحوية : ١٥٩ ، ١٦٠ .
(١٢٨ - ١٣٤) المدرسة البغدادية : ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٨ وما بعدها .
(١٣٥ - ١٣٦) ابو علي الفارسي : ٤٤٧
(١٣٧ - ١٣٩) ابن جني النحوي : ٢٥١ - ٥٢٥
(١٤٠) الرماني النحوي : ٣٤ ، ط ١ ، ١٩٦٣
(١٤١) ابو الحسن بن كيسان وارؤه في النحو واللغة : ٢٠١
(١٤٢) ابن الحاجب النحوي : ١٧
(١٤٣ - ١٤٤) مدرسة الكوفة : ٧٠
(١٤٥ - ١٤٩) الدرس النحوي في بغداد : ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ .
(١٥٠) نزهة الالباء : ٢٤٠
(١٥١ - ١٥٣) الدرس النحوي في بغداد : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ويُنظر مصدره .
(١٥٤) الخصائص : ١ / ١٩٩
(١٥٥) الدرس النحوي في بغداد : ٢٢٠
(١٥٦) طبقات الزبيدي : ١٠
(١٥٧) الدرس النحوي في بغداد : ١٩٩
(١٥٨) اختلف القدماء في ابن كيسان فقد عده الزبيدي كوفيا ، وجعله السيرافي بصرياً ، ونعته المخزومي والياسري من المحدثين الى انه بصري
(١٥٩ - ١٦٦) الدرس النحوي في بغداد : ٧٥ ، ٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٧ بتصرف قليل ، ٣٣١
(١٦٧) ابو حيان النحوي : ٣٦٨
(١٦٨) القرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية : ١٧٩
(١٦٩) الدرس النحوي في بغداد : ١٦٠ وما بعدها
(١٧٠) القواعد النحوية : ١٣٢
(١٧١) ابن الحاجب النحوي : ٢٤
(١٧٢) المدارس النحوية : ٣٤٥
(١٧٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢٥٦ ، ٢٥٧
(١٧٤) المدارس النحوية (ضيف) : ٢٨٩
(١٧٥ - ١٧٨) الدرس النحوي في بغداد : ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠
(١٧٩) نظرات في اللغة والنحو : ٨ وما بعدها
(١٨٠) نشأة النحو : ١٨٩ والدرس النحوي في بغداد : ١٨٣ .
(١٨١) القواعد النحوية : ١٢٠
(١٨٢ - ١٨٣) المدارس النحوية : ٢٩٢ - ٣٩٥ ، ٣٩٦
(١٨٤) العربية وعلم اللغة البنيوي : ٤٣
(١٨٥) المدارس النحوية (الحديثي) : ١٦ ، ٢٠ . وتقويم الفكر النحوي : ٢٤٣ ، ٢٤٤

www.dorat-ghawas.com

المصـــادر

● ـ القرآن الكريم .

● ـ ابن الانباري في كتابه الانصاف في مسائل الخلاف ، د . محيي الدين توفيق ، الموصل ١٩٧٩ .

● ابن جني النحوي ، د . فاضل صالح السامرائي ، بغداد ١٩٦٩ .

● ابن الحاجب النحوي ، د . طارق عبد عون الجنابي ، بغداد ١٩٧٤

● ـ ابو الحسن بن كيسان واراؤه في النحو واللغة ، د . علي مزهر الياسري ، بغداد ١٩٧٩

● ابو حيان النحوي ، د . خديجة الحديثي ، ط ١ ، بغداد ١٩٦٩

● ابو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ، د . احمد مكي الانصاري ، القاهرة ١٩٦٤ .

● ابو علي الفارسي حياته ومكانته بين ائمة اللغة العربية واثاره في النحو والقراءات د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، القاهرة ١٣٧٧ هـ

● الاصول ، د . تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢

● البحث اللغوي عند العرب ، د . احمد مختار عمر ، دار المعارف بمصر ١٩٧١

● تاريخ الادب العربي ، بروكلمان ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

● تاريخ الشعوب الاسلامية ، بروكلمان ، ترجمة د . نبيه فارس ورفيقه ط ١ بيروت

● تاريخ النحو واصوله ، د . عبد الحميد السيد طلب ، الناشر مكتبة الشباب د . ت

● تقويم الفكر النحوي ، د . علي ابو المكارم ، دار الثقافة ـ بيروت ط ١ ، ١٩٧٥

● الخصائص ، ابن جني ، تحـ . محمد علي النجار ، ط . دار الكتب بالقاهرة .

● الدرس النحوي في بغداد ، د . مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٧٥

● دروس في المذاهب النحوية ، د . عبدة الراجحي ، بيروت ١٩٨٠

● الرماني النحوي ، د . مازن المبارك ط ١ ، ١٩٦٣

● ضحى الاسلام ، احمد امين ، ط ٣ ، ١٩٥٢

● طبقات الشعراء ، ابن سلام ، تحـ . جوزيف هل ، ط . لايدن ١٩١٦

● طبقات النحويين واللغويين . ابو بكر الزبيدي ، تحـ . محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف .

● العربية ، يوهان فك ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١

● العربية وعلم اللغة البنيوي ، د . حلمي خليل ، الاسكندرية د . ت .

● الفهرست ، ابن النديم ، المكتبة التجارية ، وطبعة فلوجل .

● في اصول النحو ، سعيد الافغاني ، ط ٢ ، ١٩٦٤

● القاموس المحيط ، الفيروز أبادي .

● القرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية ، د . عبد العال مكرم ، دار المعارف ١٩٦٨ .

● القواعد النحوية مادتها وطريقتها ، عبد الحميد حسن ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٣

● ما ينصرف وما لا ينصرف ، ابو اسحاق الزجاج ، تحـ . هدى قراعة ، القاهرة ١٩٧١ .

● المدارس النحوية اسطورة وواقع ، د . ابراهيم السامرائي ط ١ ، ١٩٨٧ عمان . ● المدارس النحوية ، د . خديجة الحديثي ، بغداد ١٩٨٦

● المدارس النحوية ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨

● مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها د . عبد الرحمن السيد . دار المعارف بمصر ١٩٦٨

● المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ، د . محمود عبد الله جاسم محمود ، ط ١ ، ١٩٨٦

● مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، د . مهدي المخزومي ط ٢ ، ١٩٥٨

● المزهر في علوم اللغة وانواعها ، السيوطي ، تحـ . احمد جاد المولى ورفيقه مطبعة البابي الحلبي .

● معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، مطبعة دار المأمون .

● مناهج تجديد ، امين الخولي ، ط ١ ، ١٩٦١

● من تاريخ النحو ، سعيد الافغاني ، دار الفكر ، د . ت

● نزهة الالباء في طبقات الادباء ، ابو البركات الانباري تحـ . د . ابراهيم السامرائي بغداد ١٩٥٩

● نشأة النحو ، محمد الطنطاوي ، ط ٤ ، ١٩٥٤

● نظرات في اللغة والنحو ، طه الراوي ، بيروت ط ١ ، ١٩٦٢ .

من المجلات

● مجلة الضاد ، الجزء الثالث .

www.dorat-ghawas.com